44 سلسلة الدروس الثقافيّة

... وَزِدْنَاهُمْ هُدَى

شبكة المعارف الإسلامية

مركز نون للتأليف والترجمة

... وَزِدْنَاهُمْ هُدَى

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠

ص.ب. ٢٥/٣٢٧ . ٢٤/٥٣

الكتاب:	... وَزِدْنَاهُمْ هُدًى
إعداد:	**مركز نون للتأليف والترجمة**
نشر:	**جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة**
	الطبعة الأولى 2014 م - 1435 هـ

... وَزِدْنَاهُمْ هُدَى

مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفهرس 5

المقدمة 13

1. كمال الإنسان 15

نص الموعظة القرآنية 17

لقاء الله تعالى 17

حضور الله في حياتنا 19

أثر حضور الله في حياتنا 21

الشهداء هم أهل الحضور واللقاء 22

كيف يصبح الله حاضراً في حياتنا؟ 23

1 . المراقبة 24

2 . المحاسبة 25

2. الطريق نحو الكمال (الإيمان – الهجرة – الجهاد) 27
نص الموعظة القرآنية 29
تمهيد 29
أسس الطريق 29
الإيمان واللقاء 30
الهجرة في سبيل الله 33
الجهاد في سبيل الله 35
تلازم الهجرة والجهاد 38

3. وبشّر المخبتين 41
نصُّ الموعظة القرآنية 43
الإيمان الحقيقي 44
أهميّة التّسليم 45
اختبار الشّيعة بالتّسليم 46
ما يُسْتكمل به الإيمان 47
السيّدة زينب عليها السلام نموذج للإنسان المسلّم 48

4. فيما أفنيت عمرك؟! 51
نصُّ الموعظة القرآنية 53
حقيقة الموت 53
حالة الإنسان عند الموت 55
كيف نغتنم أعمارنا؟ 56
هكذا استثمر لحظات عمرك 58

وصيةٌ من أب عجوز يريد بكم خيراً 59
1. اقضوا أعماركم بالأعمال الحسنة 59
2 . حيل الشيطان مع الكهول والشباب 60
3 . التوبة في مرحلة الشباب 61
4. اصلاح النفس مرحلة الشباب 61
وفي الختام قصةٌ وعِبْرَة 62

5. الأخسرون أعمالاً 63
نصُّ الموعظة القرآنية 65
في رحاب الآية الكريمة 65
ما هي حقيقةُ الخسارة؟! 66
من هم الأخسرون أعمالاً؟ 67
الصفة الأولى ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ 67
الصفة الثانية ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ 68
كيف نحقّق الإخلاص 70
مراتب الإخلاص 71
آفات الإخلاص 72
علاج هذه الآفة 73
خاتمة المطاف 75

6. اختيار الإنسان وأثره على أعماله وسلوكه 77
نصُّ الموعظة القرآنية 79
قانون الاختيار في أفعال البشر 79

الآثار العقدية المترتّبة على العدل الإلهي واختيار الإنسان.....82
1 . لغوية الوعد والوعيد مع الإجبار.....82
2 . بطلان الثواب والعقاب مع الجبر.....83
3 . انتفاء الحاجة لإرسال الأنبياء.....84
الإيمان بالاختيار وأثر ذلك على التفاعل مع التكاليف الإلهية.....84
1 . آثار عقيدة الاختيار على المستوى الأخلاقي.....85
2 . آثار عقيدة الاختيار على المستوى الاجتماعي.....86
الاختيار وعلاقته بقدرة الله المطلقة.....87

7. مطابقة الأقوال للأفعال (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ).....89
نصُّ الموعظة القرآنية.....91
بين الوعد والوعيد.....91
سبب النزُّول.....92
ما الَّذي مقته الله في المؤمنين؟.....92
الصّف المرصوص.....93
كَبُرَ مقتاً.....94
المؤمن يُوَبَّخ ويُعَاتَب.....95
عتبُ الله تعالى على المؤمن بقدر محبّته له.....96
في التوبيخ والعتاب صلاح أولى الألباب.....97

8. الرفق في القرآن الكريم.....99
نصُّ الموعظة القرآنية.....101
الرفق واللين، واللطف هو الهدف.....101
الرفق هداية الخلق إلى الحق.....102

أهمية الرفق واللين في حياة المسلمين 103
الرفق في الروايات الشريفة 104
الله رفيق يحب الرفق 105
منظومة العلم والحلم والرفق 107
الرفق في حقوق المؤمنين 108
ارفق يُرفق بك 109
الرفيق من يرفقك على صلاح دينك 110
نتائج عدم الرفق بالنفس 110
خاتمة المطاف 111

9. مَنْ ذا الَّذِي يُقرض اللّٰه (القرض الحسن) 113
نص الموعظة القرانية 115
تمهيد 115
القرض الحسن وآثاره الاجتماعية 116
أقسام القرض 117
يُقرض الله تعالى 117
ما هو القرض الحسن؟ 118
العبرة من القصّة 121
فيضاعفه أضعافاً كثيرة 121
يقبض ويبسط 123

10. الاستغناء سببٌ للطغيان 125
نصُّ الموعظة القرآنية 127

العناصر المؤثّرة في الشخصية 127
أصالة فطرة الإنسان 128
لماذا يطغى الإنسان؟ 130
مفردات في الآيات 130
طغيان الإنسان وتكبّره 131
آثار الطغيان والتكبّر 133

11. المهدوية أمل الإنسانية 135
نص الموعظة القرآنية 137
تمهيد 137
حتمية الإيمان بالمنقذ في الديانات السماوية 138
حتمية ظهور المصلح في المدارس الفكرية 139
عقيدة الإمامية بالمهدي عجل الله فرجه 140
آداب العلاقة بالإمام المهدي عجل الله فرجه 141
1 . معرفة الإمام المهدي عجل الله فرجه 141
2 . الثبات على الدين والولاية لأهل البيت عليهم السلام 142
3 . ذكر فضائل الحجة عجل الله فرجه وموالاته في غيبته 143
4 . الصبر على المحن والبلاء 144
5 . الدعاء للإمام المهدي عجل الله فرجه والدعاء بتعجيل الفرج 144
6 . إظهار محبّته عليه السلام 145
7 . إهداء ثواب الأعمال العبادية المستحبّة له عليه السلام 146
8 . الصلاة على الإمام عجل الله فرجه والسلام عليه 146

12. أفضل عبادة أمتي انتظار الفرج 147

نص الموعظة 149

تمهيد 149

مفهوم الانتظار 149

الإنتظار السلبيّ والإيجابيّ 150

الانتظار العبادة 150

1. طاعة الله وتنفيذ الأحكام الشرعيّة 151

2. توحيد الأُمَّة وقوّتها 152

التمهيد للظهور 152

1. الإيمان بالغيب 153

2. حزب الله 153

3. الصبر على الأذى 154

4. جهوزيّة أصحاب الحجّة 154

5. تمنّي الشهادة 155

6. الارتباط بالله تعالى 155

كيف نعزّز الارتباط الروحي بالإمام عجل الله فرجه؟ 155

أ- دعاء العهد 157

ب- دعاء الندبة 157

ج- دعاء ليلة النصف من شعبان 157

الزيارة 157

إحياء أمره بين الناس 158

المقدّمة

الحمـد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيّدنـا محمد ﷺ وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين، وبعد.

إنّ الإسـلام ليس منهـج اعتقاد وإيمـان في القلـب فحسب، بل هـو منهج حياة إنسانيـة واجتماعية واقعية، يتجسّـد فيها الاعتقاد والإيمان ممارسة عملية في جميع جوانب الحياة ومتطلّباتها الفردية والاجتماعية، وذلك على مبدأ التناصح والإحسان والتضحيـة والإيثـار، قال الله تعالـى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾[1]، وهذا ما يلزم النـاس بالكثيـر من الواجبات تجاه بعضهـم البعض كأفراد، وتجـاه المجتمع ككيان اجتماعـي يحتضـن الجميع، ومـن أهم هذه الواجبـات السعي الدائـم إلى تحصين المجتمـع من كل الآفات، وحمايته مـن كل المفاسد والمضار بقلـع الأسباب وإيجاد البيئة السليمة، للتمكّن من التربية الصالحة لأفراده.

وهذا ما نجده في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[2]. فالتقيّد بهذا الأمر الإلهي يعصم الإنسان عن التقصير في واجباته، وفـي مراعاة حقـوق المجتمـع وعلى رأسهـا تحصينه مـن الآفات، وقد حـثّ النبي محمـد ﷺ كل مسلم ليكون مسؤولاً في بيئته الاجتماعية، من خلال الاهتمام بأمور

(1) سورة المائدة، الآية:2.

(2) سورة النحل، الآية: 90.

المسلميــن ومشاركتهــم في آمالهم وآلامهم، فروي عن رسول الله ﷺ: «**من أصبح لا يهتم بأُمور المسلمين فليس بمسلم**»[1]. وذلك لأنّ التكافل الاجتماعي جزء من عقيــدة المسلم والتزامه الديني، وهــو نظام أخلاقي يقوم على الحب والإيثار ويقظة الضميــر ومراقبــة الله عزَّ وجل، ولا يقتصــر على حفظ حقوق الإنســان المادية؛ بل يشمل أيضاً المعنوية، و غايته التوفيق بين مصلحة المجتمع ومصلحة الفرد.

وبنــاءً على هذه الأسس يستمرّ مركــز نون للتأليف والترجمة فــي إعداد وإصدار سلسلــة الدروس الثقافية، التــي تزخر بالعديد مــن المفاهيم التربويــة والأخلاقية والاجتماعية...، بغية تقديم الثقافة الأصيلة في تربية الفرد وبناء المجتمع.

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2 ، ص163.

1

كمال الإنسان

مفاهيم محورية:

- لقاء الله تعالى.
- حضور الله في حياتنا.
- أثر حضور الله في حياتنا.
- الشهداء هم أهل الحضور واللقاء.
- كيف يصبح الله حاضراً في حياتنا؟

نص الموعظة القرآنية:

يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[1].

لقاء الله تعالى

لا يوجد كمالٌ للإنسان أجلّ وأرفع من لقاء الله سبحانه وتعالى، وهو من أسمى مقامات الإنسانية الشامخة. ولا سعادة أكبر للمؤمن من التقرّب إلى الله تعالى صاحب الكمال المحض، والقدرة اللامحدودة، والعلم المطلق، ولا راحة أعلى من اليقين بأنّ الإنسان لا محالة راجعٌ إلى ربٍّ ودودٍ رحيم.

وقد بشّر عزّ وجلّ المؤمنين بلقائه، فقال ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ووعد الذين يرجون لقاءه بأنّ لهم ما يأملون ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].

---

(1) سورة الرعد، الآية: 2.

(2) سورة البقرة، الآية: 223.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 5.

ووصف تعالى المكذّبين بلقائه بأنّهم خاسرون وغير مهتدين ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1].

وأنّ الكافرين بلقائه هم في الحقيقة يائسون من رحمة الله، ولهم عذابٌ أليم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

وأنّه تعالى سوف يكلهم إلى أنفسهم ويذرهم في عماهم ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3].

أما أهل الإيمان والخشوع فإنّهم على يقينٍ بلقاء ربّهم وأنّهم إليه راجعون ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[4].

بل وإنّ قلوبهم وجلةٌ وفرحةٌ برجوعهم إليه سبحانه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[5].

لأنّهم على يقينٍ أنّ الله تعالى لم يخلقهم عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[6].

بل يعلمون علم اليقين أنّه اصطنعهم لنفسه ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[7].

(1) سورة يونس، الآية: 45.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 23.
(3) سورة يونس، الآية: 11.
(4) سورة البقرة، الآيتان: 45 – 46.
(5) سورة المؤمنون، الآية: 60.
(6) سورة المؤمنون، الآية: 115.
(7) سورة طه، الآية: 41.

لذا تكون نفوس المؤمنين مطمئنةً بالرجوع إلى ربّها ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[1]، راضيةً بالدخول في عباده الصالحين والوفود إلى جنّة لقائه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[2].

حضور الله في حياتنا

لقاء الله تعالى على نحوين، لقاءٌ في الدنيا ولقاءٌ في يوم القيامة عند البعث والحساب. وكلامنا الآن يتمحور حول لقاء الله في الدنيا قبل الآخرة. وليس المقصود بلقاء الحق تعالى اللقاء الحسّي ورؤيته تعالى بالبصر المادي، لأنّ الله تعالى ليس بجسم، ولا يحدّه مكان، ولا يُرى بالعين، فإنّه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[3]. بل المراد به اللقاء المعنوي، بمعنى حضوره تعالى الدائم في حياتنا، وعدم الغفلة عنه أبداً، والتوجّه إليه باستمرار، ومشاهدة آياته وآثار قدرته تعالى في كلّ شيءٍ. فلا نعبد غيره، ولا ندعو سواه، ولا نطلب حوائجنا إلّا منه. فالإنسان عندما يدرك أنّ الله تعالى خالقه، ومالك كل شيء، وبيده الأمر كله، وهو في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وهو ربّ العالمين، فمن الطبيعي أن يتوجّه إليه بالعبوديّة له والتسليم.

والوصول إلى هذه المنزلة الإنسانية الرّفيعة، من لقاء الحق والحضور في محضره إنّما يصبح ميسوراً في حالةٍ واحدةٍ فقط، وهي عندما يصبح الله تعالى حاضراً دائماً في حياة الإنسان، فيرى الإنسان خالقه حاضراً وموجوداً في جميع شؤون حياته، ويشاهد نفسه دائماً في مشهد الله العظيم وفي ساحة حسابه يوم القيامة.

(1) سورة العلق، الآية: 8.
(2) سورة الفجر، الآيتان: 27 – 30.
(3) سورة الأنعام، الآية: 103.

وكيف لا يكون ذلك وهو تعالى معه أينما ولّى وجهه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

وهو أقرب إليه من حبل الوريد ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2].

وهو شاهدٌ على كلّ حركةٍ يقوم بها وكلّ لفظةٍ ينطق بها ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾[3].

فالإنسان إذا أراد أن يحصل على مقعد صدقٍ عند الله، ينبغي له في البداية أن يرى الله حاضراً وناظراً إليه في جميع شؤونه، ثم بعد ذلك يؤدّي على أساس هذا الشهود جميع الأعمال خالصةً لوجه الله. فممّا أوصى به رسول الله ﷺ أبا ذر (رض) أن قال له: «**يا أبا ذرّ إنك منّا أهل البيت، وإني موصيك بوصيّة فاحفظها، فإنّها جامعة لطرقِ الخير وسبلِه، فإنك إن حفظتها كان لك بها كفلان، يا أبا ذرّ اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك، واعلم أن أول عبادة الله المعرفة به**»[4]. وهذه الحالة تحصل للإنسان في هذه الدنيا نتيجة الطّهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس. وقد سأل رجلٌ يقال له ذعلب أميرَ المؤمنين عليه السلام: «**هل رأيت ربك؟ قال عليه السلام: ويلك يا ذعلب ما كنت أعبد ربّاً لم أره. فقال: يا أمير المؤمنين: كيف رأيته؟ قال عليه السلام: ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائقِ الإيمان**»[5].

(1) سورة الحديد، الآية: 4.
(2) سورة ق، الآية: 16.
(3) سورة يونس، الآية: 61.
(4) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 76.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 138.

أثر حضور الله في حياتنا

إذا أدرك الإنسان أنّه في محضر الله تقدّست ذاته، وأنه مطّلعٌ على جميع حركاته وسكناته، فلن يقوم بالأعمال التي لا ترضي الله، ولن يعصيه أبداً، بل سوف يسعى دائماً لأن يجعل كلّ أعماله موافقةً لإرادته تعالى وخالصةً لوجهه سبحانه. فالله تعالى يرى ويشاهد أعمال الإنسان، وليس هو وحده وإنما رسوله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام شاهدون على أفعالنا أيضاً ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**تُعرَض الأعمال على رسول الله صلى الله عليه وآله أعمالُ العباد كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها، وهو قول الله تعالى ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾، وسكت**»[2]. وعندما سئل عليه السلام عن «**المؤمنون**» في الآية الكريمة قال عليه السلام: «**هم الأئمة**».

فإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة وهي أن كل أعماله مشهودةٌ عند الله وملائكته الذين يكتبون كل شيء، وكذلك الأئمة المعصومين عليهم السلام، عندها سوف يسعى لاجتناب المعاصي وفعل الصّالحات. أما إذا لم يطّلع الإنسان على أصل أن «**الله معه**» دائماً، وظنّ أنه غائبٌ عنه، فإنّه سوف يغرق بالغفلة، وسوف يتهاون في أداء الأعمال الواجبة عليه، ولن يهتمّ باجتناب المحرّمات. بخلاف ما إذا أدرك أنّ الله تعالى محيطٌ به ووجد نفسه دائماً في مشهده ومحضره، فإنه يسعى لأداء كل الأعمال طبق الإرادة الإلهية. وهذه الأعمال التي تؤدّى وفق إرادة الله هي أعمالٌ مقرّبةٌ إلى الله، كالصلاة مثلاً التي هي «**قربان كل تقي**»[3] كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام. وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحدّ فاعتقد أنّ الله ناظرٌ إلى أعماله، راعى الخلوص أيضاً في كل أعماله.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 105.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 219.

(3) (م.ن)، ج 3، ص 265.

فهو من جهةٍ يؤدّي الأعمال بحسب أوامر الله، ومن ناحيةٍ ثانية يكون مخلصاً في القيام بأعمال البرّ والخير. وهذه منزلةٌ رفيعةٌ يصل إليها الإنسان وهي متيسّرة للجميع، فما أخسر الذين يبيعون أنفسهم للدنيا وهم مدعوّون للوصول إلى هذا المقام الرفيع.

الشهداء هم أهل الحضور واللقاء

إنّ أكثر من يستشعر هذه المعاني السامية جيداً، ويتوق إلى هذه المنازل الرفيعة، ويصبو إليها دائماً هو ذلك الإنسان العاشق للشهادة في متراس الحرب وثغور الجهاد، لأنّ قلبه لم يتعلّق بشيءٍ إلا بالله تعالى الحيّ الذي لا يفنى.

فالمجاهد تعني الحضور، ويقابلها الغيب والضياع، وهي عبارةٌ عن حضور الإنسان في المحضر الإلهي باختياره وإرادته حيث يصل المجاهد في عشقه لله إلى درجةٍ من الشوق والوله للقاء المحبوب لا يرى معها الدنيا إلا سجناً وقيداً ومانعاً من الوصول إلى السعادة المطلقة، فيرفع حجاب الجسم المادّي عن وجه الروح وحياتها الأبدية.

فالشهيد عندما يدرك أنّ الله تعالى محيطٌ به، ومعه دائماً، وأقرب إليه من نفسه، فإنّه لا يتورّع عن تقديم كل وجوده في سبيله. الشهيد هو الذي عرف أسرار الحياة، فشهد الدنيا بعين الحقيقة؛ أنها دار الغرور والقرية الظالم أهلها، ولم يغفل عن الآخرة التي هي دار الحيوان أي الحياة الحقيقية، ﴿وَما هٰذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]. فصار الموت عنده أمنيةً، لأنّه باب الوصول إلى تلك الحياة الحقيقية، وباتت الدنيا ساحة جهادٍ دؤوبٍ للقاء المحبوب، فهو يتمنّى الموت طلباً للآخرة، ويرى الدنيا حجاباً ومانعاً من الوصول إلى غايته الكبرى. فاختار أن يسلك الطريق الأسرع والأقصر للقاء الله ونيل رضوانه، وهل من طريقٍ أسرع إلى رضوان الله من بذل المهج وخوض اللجج والقتل في سبيله؟! وهو غاية منى العاشقين وأقصى مراد الطالبين!

(1) سورة العنكبوت، الآية: 64.

لـذا كان الشهـداء في مقامهم العالـي عند الله وليس عند أحدٍ سـواه، أحياء في كنفـه بالحيـاة الحقيقيـة، لهم رزقٌ لا حدّ لـه، وعطاءٌ غير مجـذوذ، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[1]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]. لا معنـى للخوف أو الحـزن لديهم، لأنّ الإنسـان إنما يحزن ويغتمّ علـى المفقود والزائل، وهم إنّما تعلّقت قلوبهـم بالحيّ الذي لا يزول ولا يفنى، لذا لا يطـرق الخوف أو الحزن ساحتهم على الإطلاق بل ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، لأن الشهـداء جسّدوا في حياتهم كل معاني التضحية والوفاء والصبر والإقدام والصدق والإخلاص والعشق والفناء في المحبوب، فكان لهم ما أرادوا ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[4]. لـذا كان عيـد الإمام الخميني قدس سره هو اليـوم الذي يرزقه الله تعالـى الشهادة في سبيله: «**إن يوم فرحتنا وسعادتنا هو يوم نرتاح من هذه الدنيا الملوّثة والمليئة بالآلام والعذاب والبلاء. إن عيدنا ويومنا السعيد هو الشهادة**»[5].

كيف يصبح الله حاضراً في حياتنا؟

إذا كان كمـال الإنسان وسعادته الحقيقيّـة تكمن في التقرّب إلى الكمال المحض وصيرورته عند الله كما هو حال الشهداء، فإن تحقّق ذلك إنّما يكون من خلال أمرين أساسيّيـن همـا: المراقبة والمحاسبة. فالإنسـان إذا أدرك أنه في محضر الله لا بد له من مراقبة أعماله والانتباه لتصرّفاته من جهة، ومن جهةٍ أخرى عليه أن يحاسب نفسه باستمرار. فالمراقبة الدائمة والحساب المستمرّ هما اللذان يوصلان الإنسان

(1) سورة الحديد: الآية 19.
(2) سورة آل عمران: 169.
(3) سورة آل عمران، الآية: 170.
(4) سورة النساء، الآية: 69.
(5) صحيفة الإمام الخميني قدس سره، ج 1، ص 196.

إلــى المــكان الذي لا ينظر فيه إلا إلى الله. ويبيّن القــرآن الكريم هذين الأصلين في ســورة الحشر المباركــة بقولــه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[1]. فهــذه الآية تدعونا إلى أصلين أخلاقيين، الأوّل المراقبــة، والثاني المحاسبة. فــكلّ إنسانٍ مكلّفٌ بمراقبــة نفسه ومحاسبتها، فيراقبها في أفعالها وتصرّفاتها وأقوالها ويحاسبها، فإذا عمل خيراً شكر الله، وإذا عمل سوءاً استغفر الله وتاب إليه.

1 - المراقبة:

معنى المراقبة مشتقّ من «**الرقبة**»، فالذي يرفع رقبته ليشاهد أكثر يكون مراقباً. وعلــى الإنســان أن يراقب كلّ شيء فــي حياته من الكلام والفعــل والنّظر وغيرها... لكــي لا يقع فيما لا يرضــي الله، وما يخالف أمره، فهــو عزّ وجلّ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾[2]، ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[3]، وهــو مستعــدّ وجاهــز ليسجّل كلّ شــيء ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[4]، والإنســان الذي يراقب نفسه باستمرار ســوف يحرص على أن لا يرتكب أية مخالفة، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة له قال: «**فرحم الله من راقب ربه، وخاف ذنبه، وجانب هواه، وعمل لآخرته، وأعرض عن زهرة الحياة الدنيا**»[5]. ومما وصّى بــه إمامنا الصادق عليه السلام: «**واقصــد في مشــيك؛ وراقب الله فــي كل خطوة، كأنّك على الصراط جائز، ولا تكن لفّاتا**»[6].

(1) سورة الحشر، الآية: 18.
(2) سورة غافر، الآية: 19.
(3) سورة ق، الآية: 18.
(4) سورة يس، الآية: 12.
(5) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 18.
(6) (م.ن)، ج 73، ص 167.

2 - المحاسبة:

وأمـا المحاسبة فأن يحاسب الإنسان نفسه من خلال البحث والتدقيق في أعماله ليرى إن كان قد أدّى التكاليف الإلهية على أكمل وجه أم لا، فإذا اكتشف أنه ارتكب ما يخالـف أمر ربّه استغفر وأناب إليه نادماً عازماً على أن لا يعود إلى معصيته مطلقاً، وسعـى مباشرة لإصلاح الأمر وجبـران ما فاته. وإذا اكتشف أنّـه أدّى ما عليه حمد اللّه وشكـره علـى ما وفّقه إليه، وهو مـدرك أنّه لا مجال للمقارنـة بين طاعاته ونعم اللّه السابغة عليه، لذا يجد نفسه مقصّراً دائماً في محضر الحق، ولا يفتأ عن إظهار العجز والضّعف أمام ساحته، فلا يبتعد عن العبودية له قيد أنملة، ولا يجد نفسه في محضره إلّا عبداً. فعن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في بعض خطبه قال: «**أيها الناس لا يشغلنّكم دنياكم عن آخرتكم، فلا تؤثروا هواكم على طاعة ربكم، ولا تجعلوا أيمانكم ذريعة إلى معاصـيكم، وحاسـبوا أنفسـكم قبـل أن تحاسـبوا، ومهّدوا لها قبـل أن تعذّبوا، وتـزوّدوا للرحيـل قبـل أن تُزعَجـوا، فإنّها موقِفُ عدل، واقتضـاء حقّ، وسـؤالٌ عن واجبٍ، وقد أبلغ في الإعذار من تقدّم بالإنذار**»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**حاسـبوا أنفسـكم قبل أن تحاسـبوا، ووازنوها قبل أن توازنوا، حاسبوا أنفسكم بأعمالها، وطالبوها بأداء المفروض عليها والأخذ من فنائها لبقائها**»[2].

(1) بحار الأنوار، ج74، ص.183

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 12، ص 154.

2

الطريق نحو الكمال
(الإيمان – الهجرة – الجهاد)

مفاهيم محورية:

- أسس الطريق.
- الإيمان واللقاء.
- الهجرة في سبيل الله.
- الجهاد في سبيل الله.
- تلازم الهجرة والجهاد.

نص الموعظة القرآنية:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

تمهيد

كان بحثنا في الدرس السابق يدور حول عدم وجود كمالٍ للإنسان أرفع من لقاء الله والحضور الدائم في محضره. فأيّ سعادة أكبر للإنسان من التقرّب إلى الكمال المحض؟ وأيّ مقام أرفع له من صيرورته عند الله؟! فإذا كان كمال الإنسان في التقرّب إلى الله فما هو الطريق الموصل إلى ذلك؟ وإذا كانت سعادة الإنسان في أن يكون الحقّ تعالى حاضراً دائماً في حياته فلا يغيب عنه طرفة عين أبداً، فما هو السّبيل إلى ذلك؟

أسس الطريق

إنّ الآية الكريمة التالية من كتاب الله العزيز تبيّن لنا جوانب هذا الطريق الأساسيّة والتي بمراعاتها يضع الإنسان قدمه على الصّراط الإلهي المستقيم،

(1) سورة البقرة، الآية: 218.

يقـول تعالى فـي محكـم كتابـه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٞ﴾[1]. فالآية تشيـر بشكل واضح إلى أنّ الإيمان، والهجـرة، والجهـاد في سبيل الله، من العوامل الأساسيّة التـي تمهّد الأرضيّة للقاء الحـق والوصول إلى درجـةٍ عظيمة عنده كما قال عـزّ اسمه: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، ليكـون في نهاية المطاف من الفائزيـن ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾. إذاً، فشرط التقرّب إلـى الله وصيـرورة الإنسان عند الله كما هو حال الشّهيد هو في أن يتحلّى المجاهد بالإيمـان الصّحيـح والواعي، ثم يشمّـر عن ساعد الهمّة ليهاجـر إلى الله ورسوله، ثـم ينزل إلى ميـدان المجاهدة ومقارعة الأعداء بهمّةٍ عالية وبأسٍ شديد حتى ينال شرف القتل في سبيل الله، فيصل إلى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلـب بشر، فيناجي ربه قائـلاً: «**إلهي بك هامـت القلوب الوالهـة، وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة، فلا تطمئنّ القلوب إلّا بذكراك، ولا تسـكن النفوس إلّا عند رؤياك**»[2].

الإيمان واللقاء

الإيمـان هو من شؤون البشر وميولهم التي خلقت معهم، فأن نقول «**إنسـان**» فهذا يعنـي أنّنا أمام كائن يمتلك ميلاً طبيعياً نحـو الإيمان بشيء ما، فلا يخلو إنسان من هذا الميل أو الشعور. والإيمان هو نوع من الإذعان أو التّسليم لحقيقة أو لشيء نعتقد أنـه حقيقة، والنّفـس التي تؤمن به تعيش حالة من الخضـوع أو التّسليم له. والإيمان فـي الإسلام يقابل الكفر وهو الذي يكون حساب البشر في يوم القيامة على أساسه، وهـو الإيمان بـالله الواحد الأحد الـذي خلق كلّ شـيء وهو ربّ العالميـن. فالإيمان

(1) سورة التوبة، الآيتان: 20-21.

(2) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، مناجاة الذاكرين.

الإسلامي يختلف عن أيّ إيمان آخر، وبمعرفته يمكن أن نقول إنّ كلّ إيمان آخر هو الكفر الحقيقيّ الذي سوف يظهر في يومٍ من الأيام.

لقد خلق الله الإنسان لكي يصل إلى هدفٍ واقعيّ تتحقّق عنده سعادته المطلقة وكماله النهائي، وهو لم يطالبه بالإيمان إلا لدخالته في تحقّق الهدف النهائي. ويمثّل لقاء الله ودخول جنّته هذه السعادة المطلقة التي هي هدف الإنسان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، وما لم يدخل هذا الإنسان إلى الجنّة فهو من أصحاب النار والشّقاء الأبدي. وبمراجعة الآيات التي تحدّثت عن شروط الفوز بالجنّة والنّجاة من العذاب، نجد أنّ الإيمان بالله عزّ وجلّ هو العامل الأساسيّ بل الوحيد، لأن كلّ العوامل الأخرى لا تقف إلى جانبه بل تتبع منه ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾[2]. وكذلك إذا راجعنا جميع الآيات التي تحدّثت عن سبب الدّخول إلى جهنّم والعذاب الإلهي والحرمان من لقاء الحق تعالى، نجد أنّ السّبب الوحيد هو الكفر بالله سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[3]. وسرّ ذلك أنّ الإيمان والكفر هما الموجّه لمسيرة الإنسان فما يؤمن به الإنسان ويعتقد به هو الذي سيكون هدفه النهائي، وأولئك الذين آمنوا بالله حقاً، وتوجّهوا إليه وطلبوه، وسلكوا الطريق المؤدّي إليه، كانت عاقبتهم الوصول إليه ودخول جنّته التي هي مقام لقائه. فلا إمكانية للوصول إلى هذه المنزلة الرّفيعة إلا بعد الإيمان به تعالى وبإمكانية لقائه ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ

(1) سورة الانشقاق، الآية: 6.
(2) سورة الأنعام، الآية: 158.
(3) سورة آل عمران، الآية: 12.

رَٰجِعُونَ ﴾[1]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾[2]. والقرآن الكريم يحدّثنا ويؤكّد لنا على أنّ سعادة الأفراد والمجتمعات تكمن في إيمانها، وأنّ شقاءهم حاصل كفرهم، فالخير يبدأ من الإيمان وينمو معه، والشرّ مستبطن في الكفر ويستشري به. أمَا أولئك الذين آمنوا بغير الله الواحد الذي بيده كلّ خير، فسيتحرّكون نحو كمالات وهميّة، وأشياء يظنّون الخير فيها والسعادة المنشودة منها، ولكنّهم في النهاية سيدركون أنّ ما آمنوا به لم يكن الإله الحقيقيّ أصل كلّ خير ومفيض كلّ نعمة.

ولا شكّ أنّ الإيمان وحده لا يكفي للوصول إلى السعادة، فالإيمان إذا لم يصل إلى درجةٍ يحرّك معها الإنسانَ نحو مفيض الخير والكمال فإنّه لن يكون مؤثّراً. بل الإيمان الذي يولّد السّعي هو الذي سيكون مؤثّراً، وأعظم أثرٍ للإيمان الواقعي هو أنّه يجعل قلب صاحبه متوجّهاً ومقبلاً إلى الله سبحانه وتعالى، بينما يكون الكفر إعراضاً وإغلاقاً لهذا القلب أمام كلّ خير وسعادة ينشرها الرحمن في عباده ومخلوقاته. إذاً، ما ينبغي أن يتعلّق به الإيمان ليكون إيماناً إسلاميّاً، هو الإله الذي بيده كلّ خير وكمال وسعادة يصبو إليها الإنسان.

وهذا هو التّوحيد ومعنى أن يكون المرء موحّداً. فالتوحيد ليس مجرّد اعتقاد بأنّ الله خالق كلّ شيء وأنه لم يشرك معه أحداً في خلقه، بل يعني أيضاً الاعتقاد بأن كلّ خير نريده أو نحتاج إليه فهو موجود عند الله، وعلينا أن نطلبه منه. ونفس هذا الاعتقاد يعدّ درجةً من درجات الإيمان، وهو إذا استولى على قلب الإنسان، فأخرج كلّ ما ينافي هذا الاعتقاد الحقيقيّ من قلبه، فإنّ صاحبه يصل إلى أعلى درجات الإيمان. لأنّ الإيمان الكامل هو الذي يكون القلب معه لله وحده دون سواه،

(1) سورة البقرة، الآية: 46.

(2) سورة هود، الآية: 29.

فتكون جميع تحرّكات هذا الإنسان إلهية، وعندها يصبح في أعلى درجات الاستعداد لاستقبال ألطاف الحق ومواهبه السنيّة.

وأمّا الوسيلة الفضلى لنيل هذه الدرجة من الإيمان وتعميقها وترسيخها في القلب فهي العمل الصّالح ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[1]. وأهمّ هذه الأعمال المقرّبة إلى الله والهادية إليه الهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2].

الهجرة في سبيل الله

من كان يريد الله تعالى فعليه أن يهاجر إليه. والهجرة إلى الله هي التعبير العمليّ عن الإيمان به، لذا قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ﴾[3]. فالخطوة الثانية بعد الإيمان بالله والاعتقاد العقلي والقلبي به هي الهجرة في سبيله، والإنسان ما دام حيّاً فهو مكلّف بهذه الهجرة، وهي على أنواع ومراتب:

منها: أن يهاجر الإنسان من بلاد الكفر والمشركين إلى ديار الإسلام، التي يستطيع أن يؤدّي فيها تكليفه، ويأمن فيها على دينه، ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[4].

(1) سورة طه، الآية: 75.
(2) سورة الأنفال: ، الآية: 74.
(3) سورة الأنفال، الآية: 72.
(4) سورة النساء، الآية: 100.

منها: أن يترك الدّناءة، ويهجر الخبائث، ويتجنّب المعاصي التي تحول بينه وبين لقاء ربه والظّفر بجنّته، وهي قوله تعالى في كتابه العزيز، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1].

منها: الهجرة بالبدن عن مخالطة أهل العصيان والفسوق، ومجالسة أهل البغي والطغيان، وأبناء الدنيا الذين يعيقونه عن التوجّه للآخرة. والهجرة بالقلب عن المودّة لهم والميل إليهم، وترك العادات والتقاليد المخالفة للشرع، والاعتبارات الوهميّة التي تمنع الإنسان من سلوك طريق الآخرة، وتكون عائقاً من السّفر إلى الله. ففي المجتمع المادّي يتقيّد الإنسان بعادات وهميّة اعتاد عليها أهل الدنيا حتى أصبح قياس النّفع وميزان الخسارة مبيناً عليها. كما جرت العادة أن ينسب الجهل إلى كلّ من يلتزم الصّمت في المجالس العلميّة أو غير العلميّة، أو أن يعتبر التّهافت إلى الجلوس في صدر المجلس دليلاً على الرّفعة والمنزلة العالية، أو أن يعتبر أن التصّنع في الكلام والتشدّق به دليلٌ على سعة الاطّلاع والفهم، وخلافه دليل على الحقارة والضّعة وضعف الموقف والشخصيّة. بل على الإنسان المؤمن حقاً أن يغضّ النظر عن كل هذه الأمور وأن يهجرها دون أيّ خوف أو وجل، وهي قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[2].

منها: أن يهجر الإنسان أنانيّته، ويخرج من بيت نفسه المظلم، وحبّه لذاته، بهدف القضاء على أهواء النّفس حتى يقدر أن يضع قدمه على بساط التّوحيد، ويدخل عندها في مضمار ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3]. وهذه هي الهجرة الحقيقيّة إلى الله حيث يدوس الإنسان على أهوائه وأنانيّته ويمّم وجهه شطر الإله والمعبود الأوحد، وهي الهجرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾

(1) سورة المدّثر، الآية: 5.
(2) سورة المزمل، الآية: 10.
(3) سورة البقرة، الآية: 156.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]. وجاء في بعض التفاسير في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[2]، أنّ البيت في الآية يُحمل على معنيين؛ على البيت الظاهري وهو المنزل، وعلى البيت الباطني وهو بيت النفس. فكلّ من يهاجر من بيت النفس الأمّارة بالسوء بهدف التوجّه إلى الله قاصداً لقاءه، فإنّ أجره وثوابه على الله، وهو سوف يوفّيه إيّاه حتماً حتى ولو أدركه الموت في الأثناء.

الجهاد في سبيل الله

على الإنسان الذي يبحث عن السّبيل الأسلم لتعميق الإيمان وتثبيته في النّفس طمعاً في الهداية، أن يبحث عن أفضل الأعمال التي تبرهن عن صحّة وسلامة مقاصده وأهدافه. فليس كلّ من ادّعى ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[3] صحّت هجرته إلى ربّه، بل عليه أن يقدّم الأدلّة التي تثبت صحّة نيّته وصدقه في الطلب. وأفضل وسيلة لإثبات هذا المدّعى هو انتخاب أفضل الأعمال التي تقرّبنا إلى الله وتدنينا منه. ويُعتبر الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال وأحمزها، فقد سُئل إمامنا الصادق عليه السلام ذات مرّة: أي الأعمال أفضل؟ فقال عليه السلام: «**الصّلاة لوقتها وبرّ الوالدين والجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ**»[4]. وعنه عليه السلام أيضاً أنّه قال: «**الجهاد أفضل الأشياء بعد الفرائض**»[5]، وهو أشرف الأعمال أيضاً كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الجهاد أشرف الأعمال بعد الإسلام، وهو قوام الدين، والأجر فيه عظيم**»[6].

(1) سورة العنكبوت، الآية: 26.
(2) سورة النساء، الآية: 100.
(3) سورة الصافات، الآية: 99.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 158.
(5) (م. ن)، ج 5، ص 3.
(6) (م. ن)، ج 5، ص 36.

ومنشـأ هذه العظمة والأهمّية؛ أنه مـا صلحت دنيا ولا دين إلّا بالجهاد. فعن أمير المؤمنيـن عليه السلام أنّـه قال: «**إن الله عزّ وجـلّ فرض الجهاد وعظّمه، وجعله نَصْـرَهُ وناصِـرَهُ، والله ما صـلَحت دنيا ولا دين إلا به**»[1]. وكيف لا تكون له هذه العظمة وهو مـن أركان الإيمـان كما قال عليه السلام: «**الإيمـان أربعة أركان الصّـبر واليقين والعدل والجهـاد**»[2]. وقـد حـدّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنهـج العملي للإسـلام واختصره بكلمةٍ واحـدة في الجهاد في سبيـل الله حيث قال: «**سـياحة**[3] **أمّتي الجهـاد**»[4]. فمن أراد اتّباع سبيل الحق لا طريق له إلى ذلك إلّا بالجهاد.

والجهـاد في سبيل الله على قسمين كما أخبر بذلك رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث رُوي أنّـه صلى الله عليه وآله وسلم استقبل سريّة كان قد بعثها للقتال فقال لها بعد عودتها: «**مرحباً بقوم قضـوا الجهاد الأصـغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل له: وما الجهاد الأكبر، قـال: جهـاد النفسـ**»[5]. الجهاد الأصغـر وهو مواجهـة العدوّ الخارجي مـن الكفّار وأعـداء الإسلام، الذين يمنعون إقامة حكـم الله تعالى على الأرض، وهذه المواجهة لهـا أشكالٌ عديـدة: عسكرية وأمنية وسياسية وثقافيـة واقتصادية وغيرها... وهذا الجهاد الأصغر هو درع الله الحصينة وجنّته الوثيقة، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أمـا بعـد، فإن الجهـاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصّـة أوليائه، وسـوّغهم كرامـة منـه لهـم ونعمة ذخرهـا. والجهاد هو لباس التقوى، ودرع الله الحصـينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء**»[6].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 5، ص 8.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج11،ص16.
(3) السياحة: تعني الطريق والمنهج.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج11، ص14.
(5) (م.ن)، ص137.
(6) الشيخ الكليني، الكافي، ج5، ص4.

أمـا الجهـاد الأكبر فهو محاربـة العدوّ الباطني، وهـو الأهواء والنفـس الأمّارة. ووظيفـة المجاهـد الأساسيّة القضاء على هذا العدوّ الباطنـي والانتصار عليه، وهو أشـدّ فتكاً وخطراً من العدوّ الخارجي بل ومن أخطر الأعداء على الإطلاق كما أخبر عـن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام حيـن أوصى قائلاً: «**الله الله فـي الجهاد للأنفس فهي أعدى العدوّ لكم، إنه تبارك وتعالى قال إن النفس لأمّارة بالسـوء إلا ما رحم ربي، وإنّ أوّل المعاصي تصديق النفس، والركون إلى الهوى**»[1].

وقـد سمّـى النبي صلى الله عليه وآله وسلم هـذا الجهـاد بالأكبـر، لأنّ الهزيمة فيه هـي الهزيمة الحقيقيـة، والانتصـار فيه هـو الانتصـار الأكبـر. فالهزيمة في ساحـة الجهاد الأصغـر ليسـت هزيمة في الحقيقة بـل هي نيل إحدى الحسنييـن، أمّا في ساحة الجهـاد الأكبر فـإنّ الإنسان إذا فشل فـي محاربة النّفس الأمّـارة بالسّوء، فإنها ستسيطـر عليـه وتصبح هي الآمـر والناهي في مملكة وجـوده، فيخرج بذلك من ميـدان العبوديّة للّه ليدخـل في ميدان عبوديّـة النّفس والطاعة لهـا فيسقط في أسفـل سافليـن ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2]، وربمـا لا يتمكّن من جبران هذه الخسارة بعدها أبداً.

فالنفـس جرّاء التعلّق بزينة الدنيا وشهواتها تصبح مشغوفة بها، فتدعو صاحبها لارتكاب الخطايا وتزيّن له السيّئات، وهي لا تزال على هذا المنوال حتى تصبح أمّارة بالسـوء لا يهـدأ لها خاطر إلا إذا دعت وأمرت بالسيّئـات. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بقوله ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]. فالنّفس إذا تركـت وشأنهـا وأهملت تربيتها تكون مبادرة إلى المعاصـي وتأمر بالسوء دائماً،

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج11، ص138.
(2) سورة الجاثية، الآية: 23.
(3) سورة يوسف، الآية: 53.

والاستثناء هو ما خرج برحمة الله تعالى بالتربية والمجاهدة. وعليه نصل إلى هذه النتيجة؛ أن من آمن بالله حقّ الإيمان، وهاجر إليه، وجاهد في سبيله، فهو في أعظم درجة عند الله، وهو من الفائزين ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾[1].

تلازم الهجرة والجهاد

الهجرة والجهاد هما الركنان الأساسيّان اللذان يستند إليهما الإسلام من الناحية الاجتماعية والتربوية، وقد حرص القرآن الكريم على إحاطتهما بقدسيّة خاصّة كلّما تحدّث عنهما، كما أنه عظّم وقدّس درجة المهاجرين والمجاهدين أكبر تعظيم وتقديس.

الهجرة تعني التخلّي عن البيت والأهل والوطن والابتعاد عنها والتوجّه إلى ديار الإيمان حفظاً للدّين من الضّياع. وفي كثير من الآيات القرآنية نرى كلمتي الهجرة والجهاد قد ذكرتا معاً؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[2] في الصدر الأول للإسلام، كان المسلمون ينقسمون إلى قسمين هما: المهاجرون والأنصار. فالأنصار هم سكّان المدينة – يثرب – الذين آووا ونصروا، والمهاجرون هم الذين هجروا ديارهم وقدموا إلى المدينة إنقاذاً لدينهم.

والهجرة هي كالجهاد، حكم غير ثابت في الشرع الإسلامي، ولكنه من أركانه الأساسيّة وأحكامه الحيّة، بمعنى أنّ من المحتمل أن تطرأ ظروف تصبح معها الهجرة واجباً شرعيّاً وفرضاً يجب على المسلم أداؤه.

(1) سورة التوبة، الآية: 20.
(2) سورة الأنفال، الآية: 74.

ولقـد ورد للهجرة وكذلك الجهاد تفسير آخر غير مـا تقدّم، فقد فسّرت الهجرة بهجـر المعاصـي والذنـوب والابتعاد عنهـا. إذاً، المهاجـر من هجـر السيّئات. فما هـو نصيـب هذا التفسير مـن الصّحة يا ترى؟ وهل أنّ من تلوّثـت نفسه بالذنوب ثم تـاب وأصلـح واغتسل بماء التوبة المطهّر سيصبح بذلـك مهاجراً لأنه هجر الذنوب وابتعـد عنها؟ لو أخذنا بهـذا التفسير لأصبـح جميع التائبين فـي العالم مهاجرين لأنهـم هجروا الذنوب والمعاصي ونـأوا عنها، أمثال فضيل بن عياض، وبشر الحافي وغيرهما كثير... ولهذا المنحى في تفسير الهجرة شبيه في باب الجهاد أيضاً، حيث إنّ «**المجاهـد مـن جاهد نفسـه**»[1]، والمجاهد هو من يجاهد النفس الأمّارة بالسّوء وأهواءها الداخلية، ومعروف أنّ الصراع الداخلي موجود باستمرار، قائم بين النفس وأهوائها من جهـة، والعقل من جهة أخرى. يقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «**أشجع الناس من غلب هواه**».[2]

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج15، ص163.

(2) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 4، ص 394.

3

وبشّر المخبتين

مفاهيم محورية:

- الإيمان الحقيقي.
- بيان أهمية التسليم.
- اختبار الشيعة بالتسليم.
- ما يُستكمل به الإيمان.
- السيدة زينب عليها السلام نموذج للإنسان للمسلم.

نصُّ الموعظة القرآنية:

قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1].

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية المباركة: أَنَّه وقع خصامٌ بين الزبير بن العوام ـ وهو من المهاجرين ـ وبين رجل من الأنصار على سقي نخيلهما التي كانت متقاربة في المكان، فترافعا إلى النبي ﷺ، وحيث إنَّ نخيل الزبير كانت أعلى مكاناً من نخيل الأنصاري، قال رسول الله ﷺ للزبير: «**اسْقِ ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ**». وقد كانت هذه هي العادة في البساتين المتجاورة آنذاك. فغضب الأنصاري من حكم النبي العادل هذا، وقال: يا رسول الله لئن كان ابن عمتك؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ انزعاجاً من موقف الأنصاري وكلامه، فنزلت الآية الحاضرة تحذّر المسلمين من مثل هذه المواقف[2].

وقد ذكرت بعض التفاسير أسباباً أخرى لنزول الآية تتشابه فيما بينها إلى درجة كبيرة، ولا مانع من تعدّد أسباب النزول في الآية الواحدة بتعدُّد الوقائع والأحداث، ولا ينافي ذلك عمومية مفهوم الآية وصلاحيتها لكلّ زمان ومكان.

---

(1) سورة النساء، الآية: 65.

(2) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، في تفسير هذه الآية.

الإيمان الحقيقي

لقد أقسم الله تعال في الآية الكريمة بأنَّ الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيماناً حقيقياً إلا إذا تحاكموا إلى النبي ﷺ وقضائه، ولم يتحاكموا إلى غيره، بل عليهم أنْ يرجعوا إليه في كلّ ما يشجر بينهم ويختلط عليهم أمره.

فالآية الحاضرة تبيّن علائم الإيمان الواقعي الراسخ في ثلاث مراحل:

المرحلة الأُولى: أن يتحاكموا إلى النبي ﷺ وحكمه النابع من الحكم الإلهي فيما اختلفوا فيه، كبيراً كان أم صغيراً، لا إلى الطواغيت وحكّام الجور والباطل.

المرحلة الثانية: أن لا يشعروا بأيّ انزعاج أو حرج في نفوسهم تجاه أحكام الرسول ﷺ وقضائه العادل التي هي ـ في الحقيقة ـ الأوامر الإلهية نفسها، ولا يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

المرحلة الثالثة: أن يطبّقوا تلك الأحكام ـ في مرحلة تنفيذها ـ تطبيقاً كاملاً، ويسلّموا أمام الحقّ تسليماً مطلقاً؛ فالإنسان قد يسلّم في مقام النظّر بالحكم الصادر من المولى أو رسوله، ولكنّه في مقام العمل لا يصدر منه أيّ شيءٍ.

ومن الواضح أَنَّ القبول بأيّ دين وأحكامه فيما إذا كانت في مصلحة الإنسان، وكانت مناسبة لمنافعه وتطلّعاته الشخصية، لا يمكن أن يكون دليلاً على إيمانه بذلك الدين، بل يثبت ذلك إذا كانت تلك الأحكام في الاتّجاه المعاكس لمنافعه وتطلّعاته ظاهراً، وإن كانت مطابقة للحقّ والعدل في الواقع، فإذا قَبِل بمثل هذه الأحكام، وسلّم لها تسليماً كاملاً كان ذلك دليلاً على إيمانه ورسوخ اعتقاده.

ومن الآيات التي تدلّ على معنى قريبٍ من معنى هذه الآية التي صدّرنا الموعظة بها قوله تعالى من السورة ذاتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1].

(1) سورة النساء، الآية: 59.

أهميّة التّسليم

التسليم بذل الرضا بقبول قول الله تعالى وفعله وقول الرّسول وأوصيائه وأفعالهم عليهم السلام، وتلقّيها بالبشر وطلاقة الوجه وإن لم يكن موافقاً للطبع ولم يعلم وجه المصلحة، وهو من فروع العدالة وعلامة الإيمان.

المطالع للآيات والروايات يجد كمّاً هائلاً منها يتحدّث عن التسليم لأمر الله تعالى ولأمر رسوله صلى الله عليه وآله ولأمر أهل بيته عليهم السلام.

حتّى أنَّ بعضها نزّلت الإنسان العابد والعامل بالطاعات غير المسلّم منزلة المشرك، بل جعلته مشركاً صراحةً، ففي الخبر عن مولانا الصادق عليه السلام جاء فيه: «**لَوْ أَنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وحَجُّوا الْبَيْتَ وصَامُوا شَهْرَ رَمَضَانَ، ثُمَّ قَالُوا لِشَيْءٍ صَنَعَهُ اللهُ أَوْ صَنَعَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَلَّا صَنَعَ خِلَافَ الَّذِي صَنَعَ، أَوْ وجَدُوا ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، لَكَانُوا بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَلَيْكُمْ بِالتَّسْلِيمِ**»[1].

ففي هذه الرواية دلالةٌ واضحةٌ وصريحةٌ على أنَّ ذرّة الاعتراض على صنيع الله سبحانه وتعالى وأنبيائه وأوصيائه كفيلةٌ بإخراج المؤمن العابد لله، والعامل بالطاعات، عن حريم التوحيد إلَى ساحة الشرك.

وقد كان الأئمّة عليهم السلام ينتهزون كلّ فرصةٍ ومناسبةٍ ليبيّنوا لأصحابهم أهمّية التسليم، فقد روي أنَّ زيداً الشّحّام قال لأبي عبد الله عليه السلام: «**إِنَّ عِنْدَنَا رَجُلاً يُقَالُ لَهُ كُلَيْبٌ، فَلَا يَجِيءُ عَنْكُمْ شَيْءٌ إِلَّا قَالَ أَنَا أُسَلِّمُ فَسَمَّيْنَاهُ كُلَيْبَ تَسْلِيمٍ، فَتَرَحَّمَ**

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص390.

عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا التَّسْلِيمُ؟ فَسَكَتْنَا. فَقَالَ: هُوَ والله الْإِخْبَاتُ قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[1]»[2].

كم منّا في هذا الزّمن يكون مثل (كُلَيْب) يدخل في سلك الَّذِي آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إِلَى ربّهم.

هل نحن كذلك؟!

أمّ أَنَّنا تخلّقنا بأخلاق بني إسرائيل الَّذِين كانوا يسلّمون بالأحكام التي يرونها متناسبة مع أهوائهم ومنافعهم الشخصية، ويرفضون تلك التي لا تناسبهم، حتّى قال الله تعالى عنهم في كتابه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3]!!

اختبار الشّيعة بالتّسليم

كان أئمّة أهل البيت عليهم السلام ينتهزون الفرص والمناسبات لامتحان أصحابهم ومريديهم بهذا الأمر، فقد روى مأمون الرقي قال: «**كنت عند سيدي الصادق عليه السلام، إذ دخل سهل بن حسن الخراساني، فسلّم عليه، ثمّ جلس فقال له: يا ابن رسول الله، لكم الرأفة والرحمة، وأنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حقٌّ تقعد عنه، وأنت تجد من شيعتك مئة ألف يضربون بين يديك بالسيف؟ فقال له عليه السلام: اجلس يا خراساني، رعى الله حقك! ثمّ قال: يا حنفية اسجري التنور، فسجرته حتى صار كالجمرة وابيّضّ علوه، ثمّ قال: يا خراساني، قم فاجلس في التنور!. فقال الخراساني: يا سيدي، يا ابن رسول الله، لا تعذّبني بالنار، أقلني**

(1) سورة هود، الآية: 23.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 391.

(3) سورة البقرة، الآية: 85.

أقالك الله. قال عليه السلام: قد أقلتك. فبينما نحن كذلك، إذ أقبل هارون المكيّ، ونعله في سبابته، فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله، فقال له الصادق عليه السلام: ألق النعل من يدك. واجلس في التنور قال: فألقى النعل من سبابته، ثمّ جلس في التنور. وأقبل الإمام عليه السلام يحدّث الخراساني حديث خراسان حتى كأنّه شاهدٌ لها، ثمّ قال: قم يا خراساني، وانظر ما في التنور. قال: فقمت إليه فرأيته متربّعاً، فخرج إلينا وسلّم علينا. فقال له الإمام عليه السلام: «كم تجد بخراسان مثل هذا؟» فقلت: والله، ولا واحداً! فقال عليه السلام: لا والله ولا واحداً، أما إنّا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا، نحن أعلم بالوقت»[1].

ونحن في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشبهات يجب أن نكون حريصين جداً على التسليم، وإن خفيت علينا حِكم الأشياء، لـ«**إِنَّ دِينَ اللهِ لَا يُصَابُ بِالْعُقُولِ النَّاقِصَةِ وَالْآرَاءِ الْبَاطِلَةِ وَالْمَقَايِيسِ الْفَاسِدَةِ وَلَا يُصَابُ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ، فَمَنْ سَلَّمَ لَنَا سَلِمَ وَمَنِ اهْتَدَى بِنَا هُدِيَ**»[2]، وكلّ عقل دون عقل الإمام فهو عقل ناقص، وكلّ طريقٍ لم يخطّه أهل البيت عليهم السلام هو طريق ضلال وعمى.

ما يُستكمل به الإيمان

وعلينا لكي نستكمل الإيمان أن نعمل بما روي عن إمامنا الصادق عليه السلام حيث قَالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَكْمِلَ الْإِيمَانَ كُلَّهُ فَلْيَقُلْ: الْقَوْلُ مِنِّي فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ قَوْلُ آلِ مُحَمَّدٍ فِيمَا أَسَرُّوا ومَا أَعْلَنُوا، وفِيمَا بَلَغَنِي عَنْهُمْ، وفِيمَا لَمْ يَبْلُغْنِي**»[3].

ولنعلم أَنَّ هذا التسليم المطلق لله تعالى وأولياء أمورنا يرجع علينا بالنفع والفائدة في الدنيا والآخرة، كيف والأحكام الإلهية صادرة من منبع الخير والحكمة المطلقة!

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج47، ص123.
(2) (م. ن)، ج 2، ص 303.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص391.

فقد يكون الإنسان المسكين معتقداً بمصلحةٍ له في أمرٍ ما، وهي في الواقع مفسدةٌ له، والعكس صحيحٌ أيضاً، كما دلّ على ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وعليه، فإذا كنّا نؤمن بحكمة ربّنا وبتدبيره، وأنَّ نبيّه وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين لا يتجاوزون ربّهم في أفعالهم وأقوالهم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[2]، فلا مجال إلّا لأنّ نكون مسلّمين لهم في كلّ صغيرةٍ وكبيرة.

السيّدة زينب عليها السلام نموذج للإنسان المسلّم

إذا أردنا أن نذكر شخصيّةً بلغت القمّة في التسليم لأمر الله تعالى، فإنّه تتراءى أمامنا شخصية سيدتنا ومولاتنا زينب عليها السلام؛ وذلك لأنّ العقيلة قد عاشت فقدان جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت قد دعت الله عزّ وجلّ أن يشفي جدها، ولكنَّ أمر الله كان مفعولا، وعاشت فقدان أمّها الصديقة الطاهرة عليها السلام وكانت قد دعت الله أن يشفي أمها، ولكنّ الزهراء عليها السلام استشهدت، وعاشت سيدتنا زينب فقدان أخيها الحسن عليه السلام وكانت قد دعت الله أن يشفي أخاها الحسن عليه السلام ولكنّ أخاها استشهد، عاشت سيدتنا زينب عليها السلام فقدان الأخ والكفيل والأبناء والأقرباء في يوم واحد، وكانت قد دعت الله أن يسلّمهم، ولكنّهم استشهدوا.

نعم، سيدتنا زينب في كلّ هذه الموقف دعت الله أن يبقي أحبّتها، ولكنّها عندما لم يستجب الله دعاءها لم تقل كما يقول بعض الناس إذا لم يستجب الله دعاءهم في مسألة معيّنة (الله لا يحبّني)، بل قالت صلوات الله عليها عندما خاطبها ذلك

(1) سورة البقرة، الآية: 216.
(2) سورة النجم، الآيات: 3 – 5.

اللعيـن ابن زياد مستهزءاً كيف رأيت صنـع الله بأخيك وأهل بيتك؟! فقالت عليها السلام: «**مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً**»[1].

ونختـم حديثنا برواية لطيفة عـن التسليم، ذكرها الشَّيْخ الكليني قدس سره في كتابه بإسنـاده إِلَى كَامِلٍ التَّمَّارِ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «(**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**) **أَتَدْرِي مَنْ هُمْ؟ قُلْتُ أَنْتَ أَعْلَمُ، قَالَ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسَلِّمُونَ، إِنَّ الْمُسَلِّمِينَ هُمُ النُّجَبَاءُ، فَالْمُؤْمِنُ غَرِيبٌ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**».

جعلنا الله جميعاً من المسلّمين لله ولرسوله ولأوليائه صلوات الله عليهم أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج45، ص166.

4

فيما أفنيت عمرك؟!

مفاهيم محورية:

- حقيقة الموت.
- حالة الإنسان عند الموت.
- كيف نغتنم أعمارنا؟
- هكذا استثمر لحظات عمرك.
- وصية من أب عجوز.
- قصة وعبرة.

نصُّ الموعظة القرآنية:

قال تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾[1].

حقيقة الموت

يُجمعُ بنو البشر على حقيقةٍ قطعيّةٍ غير قابلةٍ للإنكار، ألا وهي الموت ووقوع انقطاع حياة الإنسان في هذه الدنيا، في حين يقع الاختلاف والافتراق في تحديد حقيقة وماهيّة هذا الهادم للّذات وطبيعته ولابدّيّة وحتميّة وقوعه، وهنا ينقسم الآدميّون إلى معسكرين، الأوّل وهو المعسكر المادي والإلحادي المُنكر لوجود الباري عزّ وجل، والمؤمن بأنَّ الكون والخلق إنّما كانا صنيعة الصدفة والانفجارات الكونيّة!! وهؤلاء يُنكرون كُلَّ ما جاءت به الشرائع والديانات من بيانٍ لفلسفة الموت وحقيقته وما وراءه من إيابٍ وحساب وثواب وعقاب، وبعبارةٍ أخرى هم لا يعتقدون بقضية المعاد والعالم الثاني من رأس، ولهذا عمدوا إلى البحث عن حقيقة الموت لتفادي وقوعه وحدوثه وتخليداً لحياتهم المهدّدة بالانقطاع والانهدام. وفي هذا السياق انتشرت

(1) سورة المؤمنون، الآيتان: 99 – 100.

المئات من الأبحاث العلميّة والنظريّات التحليليّة الموصلة ـ وبحسب المعتقد المادي المعتمد على التجربة والأبحاث المخبريّة ـ إلى أنَّ الموت عبارة عن نتيجةٍ حاصلة من حالاتٍ مَرَضيّة تصيب خلايا وذرّات البدن وتودي بالجسد إلى فقدان مناعته وفاعليّته وذلك من خلال أسباب عديدة منها انتشار السموم والبكتيريا الخفيّة في أنحاء الأنسجة المكوّنة لأعضاء الجسد، وانتشار المواد الهلاميّة الزلاليّة الساكنة وغير الفاعلة في الجسد مكان المواد المولّدة للطاقة (الروح)، ويحدث من جرّاء ذلك خمودٌ في أنحاء البدن، وتوقفٌ عن الحركة والتفاعل وهذا هو (الموت).

وفي الحقيقة يسعى أصحاب هذه المقولات من خلال هذه الأبحاث والدراسات للوصول إلى أمرين أساسيّين:

الأوَّل: التشكيك في حتميّة ظاهرة الموت، والقول إنَّهُ أمرٌ غير قطعيّ ويقينيّ الوقوع والحدوث.

والثاني: السعي إلى إيجاد حلول تحول دون حصول هذه الأمراض منعاً لوقوع الموت وسعياً للوصول إلى الخلود الدائم الأبدي المنشود.

أمَّا الطرف المقابل للمعسكر الأوّل وهم أصحاب الفكر الديني، فإنَّهم يُقدّمون قراءةً ومقاربةً أخرى حول قضية الموت، هي نظرة الإسلام إلى الموت بغَضّ النظر عن مقولة الماديّين وأصحاب وأتباع الديانات الأخرى.

فالإسلام في نفس الوقت الذي يتحدّث فيه عن حتميّة ولابدّيّة وقوع الموت كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾[1]، ممّن يسعى للنجاة والمفرّ منه، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾[2]، ويقدّم مقاربةً فكريّةً

(1) سورة آل عمران، الآية: 185.

(2) سورة النساء، الآيتان: 7 – 8.

عميقة لحقيقة الموت نستخلص منها ـ ولضرورة إيجاز المقال والاقتصار على الاختصار بحسب ما يتيحه المجال ـ أنَّ الموت عبارةٌ عن تحريرٍ للروح من أسر الجسد؛ لتلقى جزاءها وحسابها، وأنَّهُ عبارة عن قنطرةٍ من دار ممر إلى دار مقر، فالإنسانُ في حياته الدنيا تحت اختبارٍ وامتحانٍ وابتلاء، لتظهر نتائج أعماله وأفعاله يوم الحساب التالي لسفر الموت، وفي هذا قال تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾[2].

فإذاً، قضية حتميّة الموت، والنشر والحشر، والمعاد والحساب، والثواب والعقاب، من الأمور التي لا تقبل الإنكار في الإسلام، وكثيراً ما تحدّث القرآن الكريم عن هذه الحقائق بشكل لا يبقي أي مجالٍ للتشكيك بحقانيّتها وصدقها.

حالة الإنسان عند الموت

من جملة الأمور التي وردت في الكتاب الكريم حالة الإنسان عند مواجهته الواقعيّة للموت فيراه رأي العين، ويذكر لنا القرآن الكريم نوعاً من الخطاب والحوار بين هذا الإنسان الذي وصل إلى هذه الحقيقة التي لا مفرّ منها، وبين خالقه وبارئه صاحب السلطة والقدرة على محاسبته ونشر كتابه بما يحوي من صالح الأعمال وطالحها.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[3]، لكن يتفاجئ الإنسان ويصطدم باستحالة العودة، فاليوم حسابٌ ولا عمل، وقد أغفل عُمُراً كاملاً من إمكانيّة العمل دون حساب، فيأتيه الجواب: ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ ﴾، والنتيجة: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

(1) سورة الأنبياء، الآية: 35.
(2) سورة الغاشية، الآيتان: 25 – 26.
(3) سورة المؤمنون، الآيتان: 99 – 100.

﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾[1]، وهنا يكرّر الله عزّ وجلّ الاستنكار لأهل التمرّد والعصيان، فيسألهم سؤال مستنكر: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[2]،فيكون جوابهم واعترافهم بشقائهم وضلالهم راجين الله عزّ وجلّ أن يخرجهم من ورطتهم وعذابهم، واعدين إيّاه عدم العود إلى الظلم والمعصيّة، ليأتيهم الجواب كالصاعقة المحرقة لآمالهم والباعثة لآلامهم: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[3].

بعد هذا الحوار الصريح والباعث للخوف والرهبة، ينبغي لكُلّ عاقلٍ أن يقف مليّاً عند هذه الآيات الكريمات، فالمحتمل بل المقطوع به خطيرٌ جداً، ألا وهو جهنم والنيران وبئس المهاد والخزي العظيم.

كيف نغتنم أعمارنا؟

لو أراد المرءُ النجاة ـ ولو وفق قاعدة عبادة التجار ـ فما عليه إلا أن يغتنم عمره في هذه الدنيا بالعمل الصالح، فأوّل شيءٍ يحاسب عليه هو عمره، حيث يقال له في أيّ شيء أفنيت عمرك؟ فإن قال: في المعاصي والملاهي وليس له جواب غير هذا، كان مستحقاً أن يكون نزيل جهنم خالداً فيها؛ليكون هو ومن معه ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[4]، فيأتيهم الجواب: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ...﴾ ؟!! ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[5]، وإن قال: في العبوديّة لله تعالى والطاعة له كان في عداد ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[6].

(1) سورة المؤمنون، الآيتان: 102 – 103.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 105.
(3) سورة المؤمنون، الآية: 108.
(4) سورة فاطر، الآية: 37.
(5) سورة فاطر، الآية: 37.
(6) سورة الزمر، الآية: 20.

ولقد ورد هذا المعنى في الكثير من الروايات الصادرة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، فعن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّهُ قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ...**»[1]، ومن هذا المنطلق ينبغي على كُلِّ عاقلٍ ضنينٍ بنفسه من الهلاك والعذاب أن يحرص على عمره وأيامه التي منحها الله عزّ وجلّ له في هذه الحياة فيستنفذها في زراعة الخير والصلاح فيها ليحصد الفلاح والنجاح في الآخرة، فقد «**علم أرباب القلوب أنَّ الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها،والقلب المستغرق بالدنيا كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلّما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينبو بذر في أرض سبخة...**»[2].

من هنا لا ينبغي أن يغفل المرء عن أيامه المتصرِّمة فتسير به دون أن يدري بمسيرها ومقصدها، وإنّما يجب أن يحسبها حساباً دقيقاً لا يفوت معه لحظةٌ، حساباً أشدّ وأحرص من حساب ماله وربحه وتجارته؛ وفي هذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كُنْ عَلَى عُمُرِكَ أَشَحَّ مِنْكَ عَلَى دِرْهَمِكَ وَدِينَارِكَ**»[3]؛ لأنَّه كُلُّ رأس ماله بل كُلُّه الذي ينقضي بانقضائه، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّهُ قال: «**إِنَّمَا أَنْتَ عَدَدُ أَيَّام، فَكُلُّ يَوْمٍ يَمْضِي عَلَيْكَ يَمْضِي بِبَعْضِكَ**»[4]، وعنه عليه السلام أيضاً، قال: «**إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا**»[5]، فعمرك مجموع أيام وكلّما انقضى منه يومٌ نقص عمرك وذهب جزءٌ منك.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ج27، ص 103.
(2) (م. ن)، ج67، ص353.
(3) الري شهري، محمّد، ميزان الحكمة، ج3، ص 2112.
(4) (م. ن).
(5) (م. ن).

هكذا استثمر لحظات عمرك

العمـر أيّها العزيـز! ساعاتٌ معدودات مقسّمةٌ على الأيـام، واليوم ليلٌ ونهار، ليلٌ تنامـه ونهـارٌ تقضي فتراته في أشغـال وأعمال شتى، وساعـات الاغتنام والاكتساب للآخـرة قليلةٌ جـدّاً ولهذا ينبغي وكما قيـل أن يكون لك في كلّ شـيءٍ نيّة تتقرّب بها إلـى الله عـزّ وجلّ، فـي نومك وعملـك وعبادتك وساعـات أكلك وسهـرك وسمرك واستراحتـك، بـل فـي كُلِّ شؤونك وحالاتـك، وعليـك أن تستفيد من الفـراغ تثقيلاً لميزانـك، بالعمل والمواظبة والمراقبة تعود عليك العوائد وتستفيد لنفسك الفوائد، وإلّا حـقّ عليك أن تكون ملوماً ومغبوناً، فإتلاف العمر والإصرار على تضييعه وتفويته خسارةٌ لا تعوّض وسفهٌ بنظر العقلاء، أعاذنا الله وإيّاك من السفه والخسران.

والوقت يا أخي! كالسيف إن لم تقطعه ـ بالاستفادة منه ـ قطعك بالمضي والتجاوز عنك، فاغتنم وقتك بالعمل، واختر لنفسك أفضل الأعمال وأنفعها.

اجعـل وقتاً للطاعة والعبـادة والذكر والمناجاة؛ فإنَّهُ مـن أقبل على الله عزّ وجلّ أقبـل الله عليه، واعمل لدنياك بما فيه صلاحك ونجاحـك ومرضاة ربّك، من درسٍ وتحصيـلٍ وبناءٍ لحيـاةٍ شخصيّة وتأسيسٍ لعائلـةٍ وتربيةٍ للأبناء بمـا يعود بالفائدة عليك وعلى محيطك العائلي ومجتمعك الأوسع.

لا تجعـل للفـراغ وضياع الوقت والعمر سبيلاً إليك؛ فـإنَّ في ذلك بغضاً من الربّ وشـدّةً فـي الحسـاب، قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الله يبغض الصحيح الفارغ، لا في شغل الدنيا ولا في شغل الآخرة**»[1]، وقال: «**أشدّ الناس حساباً يوم القيامة المكفي الفارغ**»[2]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[3]، وعن سيّد

(1) الري شهري، محمّد، ميزان الحكمة، ج3، ص 2412.
(2) (م. ن).
(3) (م. ن).

الساجدين عليه السلام في دعائه: «**وَاشْغَلْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ عَنْ كُلِّ ذِكْرٍ، وَأَلْسِنَتَنَا بِشُكْرِكَ عَنْ كُلِّ شُكْرٍ، وَجَوَارِحَنَا بِطَاعَتِكَ عَنْ كُلِّ طَاعَةٍ. فَإِنْ قَدَّرْتَ لَنَا فَرَاغاً مِنْ شُغْلٍ فَاجْعَلْهُ فَرَاغَ سَلاَمَةٍ لَا تُدْرِكُنَا فِيهِ تَبِعَةٌ، وَلَا تَلْحَقُنَا فِيهِ سَأْمَةٌ، حَتَّى يَنْصَرِفَ عَنَّا كُتَّابُ السَّيِّئَاتِ بِصَحِيفَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ ذِكْرِ سَيِّئَاتِنَا، وَيَتَوَلَّى كُتَّابُ الْحَسَنَاتِ عَنَّا مَسْرُورِينَ بِمَا كَتَبُوا مِنْ حَسَنَاتِنَا**»[1].

واعلم أنَّ الندم على ما فات لا يرجعه ولا يعوّض الخسارة، ومقولة: لو أنَّ الزمان يعود لفعلت كذا، وليت الشباب يعود يوماً لأجتهد في تحصيل الطاعة والثواب ليوم لا ينفع مالٌ ولا بنون لا إمكانيّة لترجمته وحصوله، ومن هذا المنطلق الأجدر بنا أن نعمل اليوم وأن نسعى لأن يكون يومنا أحسن حالاً من أمسنا، وأن يكون غدنا أحسن من يومنا، وأن نقيّم أحوالنا ونحاسب أنفسنا، وأن لا نركن إليها ونغفل عنها طرفة عين أبداً، فإنَّ أنفسنا شيطانٌ باطنيٌّ وهو أعدى أعدائنا، وإبليس الرجيم من خلفها ظهير، يساندها ويسوّل لها.

وصيةٌ من أب عجوز يريد بكم خيراً

يقول العارف الكامل والعالم العامل الإمام الراحل الخميني المقدّس ـ أعلى الله مقامه ـ:

1 - اقضوا أعماركم بالأعمال الحسنة:

«إنَّ الجنَّة والنار من أعمالنا، ولذلك، عليكم أن تقضوا العمر الشريف الذي منحكم الله تبارك وتعالى إيَّاه بالأعمال الحسنة ولا تهدروه! ولمّا كان الله تبارك وتعالى مطّلعاً على الحقائق من أنّ أيّ عمل يعمله الإنسان هنا سيراه هناك. هداكم للقيام بالأعمال المفيدة للمجتمع ولأنفسكم. لذا، فإنّ عقل الإنسان

(1) الإمام علي بن الحسين، زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجاديّة، الدعاء، (11) و(20).

يقضي بألّا يُهدر العمر، والأفضل من ذلك ألا ينفقه المرءُ في طريق الشرّ فيكون هناك وبالاً عليه!»[1].

2 - حيل الشيطان مع الكهول والشباب:

«كم يحدث أن يتّبع الشيطان الباطني معنا. نحن الكهول. خدعاً تختلف عن تلك التي يتبعها معكم أنتم الشباب. إنَّهُ يتّبع معنا سلاح اليأس من الحضور وذكر الله، ويلفتنا أنَّهُ لا فائدة من العمل ما دام العمر قد انقضى ولا يمكن إصلاحنا، وأنَّ أيام الشباب التي هي أيام التجوّل والتحرّك قد انتهت، وأنَّ أيام الضعف والكهولة قد حلّت ولا يمكن فيها الإصلاح؛ لأنَّ جذور الأهواء والمعاصي متغلغلة في جميع أركان الإنسان، ومدّت فروعها وجذورها فيه، وبذلك يحول دون توفيقك للحضور في ساحته جلّ وعلا، ويحدثك أن لا جدوى من العمل، والأفضل أن تستفيد أكثر من ملذات الدنيا في هذه الأيام المعدودة والأخيرة التي بقيت من عمرك! وأحياناً يتّبع معنا. نحن الكهول. الأساليب نفسها التي يتّبعها معكم أنتم الشباب، حيث يقول لكم: أنتم شباب ولا بدَّ أن تتصرّفوا في هذه المرحلة من العمر. وهي مرحلة الشباب مرحلة التمتع بالملذات. طبقاً لشهواتكم وستتوبون إن شاء الله في أواخر العمر، وأنَّ باب رحمة الله مفتوح، وأنَّ الله أرحم الراحمين، وأنَّهُ مهما تكن الذنوب أكبر وأكثر فإنَّ فُرَصَ الندم والعودة إلى الحقّ في أواخر العمر تكون أكبر، وسيزداد التوجّه نحو الله المتعال وسيتضاعف الاتصال به، وكم من الناس قد تمتّعوا بملذات الشباب عندما كانوا في سن الشباب، وقضوا أيام كهولتهم وأواخر عمرهم بالعبادة والذكر والأدعية وزيارة الأئمّة عليهم السلام والتوسّل وطلب الشفاعة منهم، ورحلوا عن هذه الدنيا بسعادة!! كذلك فإنّنا نواجه أيضاً

(1) الإمام الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، من خطاب ألقاه في نوفل لو شاتو في باريس، خلال لقائه جمعاً من الطلبة الجامعيين والإيرانيين المقيمين في الخارج، ج4، ص29، الطّبعة الأولى 1430هـ، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، الشؤون الدوليّة، إيران.

بمثل هذه الوساوس، وهي: أنَّهُ لا يعرف بالضبط أنَّك ستموت قريباً، وأنَّ الفرصة لا زالت أمامك فتمتّع بها حتّى الأيام المعدودة الأخيرة من عمرك، وآنذاك يمكنك أن تتوب لأنَّ باب شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفتوح، وأنَّ المولى أمير المؤمنين عليه السلام لن يدع أحباءه يتعذّبون يوم القيامة، وستراه عند لحظات الموت، وسيأخذ بيدك في تلك اللحظات، والكثير من هذه الأقوال التي تطرق أذن الإنسان دوماً!!

3 - التوبة في مرحلة الشباب:

ولدي: «الآن وأنا أتحدَّث معك، وأنت شاب، ينبغي أن تعرف أنَّ التوبة في مرحلة الشباب أسهل، وأنَّ إصلاح النفس وتهذيب الروح يكون أسرع في هذه المرحلة. لأنَّ التأثّر بالأهواء النفسيّة واللهاث وراء الجاه والغرور والتكبّر على الآخرين يكون أكثر وأشدّ عند الكهول مقارنة بالشباب، حيث إنَّ روح الشباب لطيفة وسهلة التغيير، كما أنَّ الشباب يتأثرون أكثر من الكهول بالمواعظ التي تلقى في مجالس الوعظ والإرشاد والأخلاق، لذا يجب على الشباب أن ينتبهوا كثيراً ولا ينخدعوا بالوساوس الشيطانيّة والنفسيّة، فالموت قريب من الشباب بقدر ما هو قريب من الكهول، فأي شاب يمكنه أن يطمئن أنه سيصل إلى مرحلة الكهولة؟ وأي إنسان مصون من حوادث الدهر»؟

4 - اصلاح النفس مرحلة الشباب:

بني: «لا تدع الفرصة تفوتك، واسع إلى إصلاح نفسك وأنت في مرحلة الشباب. كذلك يجب على الكهول أن يعلموا أنَّهم ما داموا أحياء في هذه الدنيا فإنَّ بإمكانهم التكفير عن ذنوبهم ومعاصيهم، ولو انتقلوا من هذه الدنيا فإنَّ الأمور تخرج من أيديهم»[1].

(1) الإمام الخميني، روح الله، المظاهر الرحمانيّة، رسائل الإمام الخميني قدس سره العرفانيّة، 30/29، الطَّبعة الأولى1995م، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، الشؤون الدوليّة، إيران.

وفي الختام قصةٌ وعِبْرَة

يـروى أنَّ روح الله عيسى بن مريـم (على نبيّنا وآله وعليهمـا الصلاة والسلام) كان ماشياً في جبل، فرأى رجلاً يتعبّد تحت صخرةٍ، فقال له عيسى عليه السلام: ألا بنيت لـك بيتاً تتعبّد فيه؟!، فقال له الرجل: وهل هذا العمر القصير يستحق أن أضيّعه في البناء؟!! لقد قال لي أحد الأنبياء إني سأعيش سبعمائة سنة، وهذه مدّةٌ قد لا تكفيني لأحرز فيها رضا ربّي!!!

فقـال له عيسى عليه السلام: وكيف بك إذا رأيـت أهل آخر الزمان لا يعيشون أكثر من سبعين سنة وهم يفنـون أعمارهم ببناء القصور؟!! فقال الرجل: ما أشدّ جهلهم! لو أدركت زمانهم لجعلته سجدةً واحدةً!!

5

الأخسرون أعمالاً

مفاهيم محورية:

- ما هي حقيقة الخسارة؟
- من هم الأخسرون أعمالاً؟
- كيف نحقّق الإخلاص؟
- مراتب الإخلاص.

نصُّ الموعظة القرآنية:

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

في رحاب الآية الكريمة

إنَّ من أفضل أساليب تنبيه المخاطب وجذبه هو طرح الاستفهام المباشر عن شيء لا يعرفه، خصوصاً وأنَّ الآية الشريفة صدّرت السؤال بـ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾، حيث إنَّ النبأ لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر، مع كون المخبَر به أمراً عظيماً بليغاً، ويجوز أن يكون المخبَر بما يعلمه وبما لا يعلمه؛ ولهذا يقال: (تخبرني عن نفسي)، ولا يقال: (تنبئني عن نفسي)، وكذلك تقول: (تخبرني عما عندي)، ولا تقول: (تنبئني عما عندي)، وفي القرآن: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2] [3].

هذا، والآمر بالسؤال هو الله تعالى، والمأمورُ هو النبيُّ المصطفى محمدٌ ﷺ، والمعلومة التي يُراد الإنباء عنها صادرةٌ مِمّن وصف نفسه في كتابه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[4].

---

(1) سورة الكهف، الآيتان: 103 – 104.

(2) سورة الشعراء، الآية: 6.

(3) الفروق اللغوية لابن هلال العسكري: 528.

(4) سورة فاطر، الآية: 14.

و﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ الواقعة بعد الاستفهام مباشرةً والمنبأ عنهم، يشوّق السامع لمعرفة الأمر والبحث عنه، خصوصاً وأنّ المنبئ هو الله عزّ وجل، وينبئ عن الأخسرين في الآخرة، فقد يكون الأخسر في الدنيا من الفائزين في الآخرة، وقد يكون العكس، فالله عزّ وجل صرّح بأنَّ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ هم الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم لا يعلمون بذلك، بل يعلمون العكس، ويحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

ما هي حقيقةُ الخسارة؟!

ومَنْ هو الخاسِرُ؟! بل مَنْ هو أخسَرُ الناس؟!

وهل هو مَن خسِرَ تجارتَهُ؟! هل هو من خسِرَ مالَهُ؟!

مَن اعتاد على عالم الدُّنيا، ولم ينظر إِلَى ما وراء عالم الماديات قد يظنُّ ولا يُفكِّر إلا بما يرتبط بالخسارة الدنيويّة... لكن هل هذه هي الخسارة الحقيقيَّة التي يتكفّل الجبّار بأنْ يخبرنا عنها؟!

قطعاً الأمر ليس كذلك؛وذلك لأنَّ خسائرَ الدنيا تتّصف بأنَّها:

محدودة.

قابلة للتعويض والزوال.

وليتعظ الإنسان بما يراه من تجارب يومية، بل قد يعيش هو نفسه بعض هذه التجارب، فكم من مرّةٍ نخسر ونفقد كلّ ما لدينا، ثم نقوم من جديد.

وعليه، فما كان شأنه محدوداً وقابلاً للتعويض، ليس هو الخسارة الحقيقية.

بل قد تكون نتيجةُ هذه الخسارة الدنيويَّة نعمةً من نِعَم الله تعالى على الإنسان، فيما لو تلقّاها بصبر، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ

وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[1]، ومع الصبر على هذه الابتلاءات يأتي وعد الله وبشارته قائلاً: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾، فبشّرهم بالخير الكثير: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾.

فليست الابتلاءات الدنيوية والخسائر التي تحصل فيها هي المقصودة من الآية الكريمة... فما هي هذه الخسائر المشار إليها إذن؟!!

من هم الأخسرون أعمالاً؟

الأخسرونَ أعمالاً - بحسب هذه الآية الشريفة - هم الذين اتصفوا بصفتين:

الصفة الأولى ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾:

وليعلم أَنَّ ضلالَ السعي في الحياة الدنيا سبَبُهُ ضلالٌ وخللٌ كبيرٌ في العقيدة، ونفوذٌ من الشيطان إلى صلبِها، فلو لم تكن العقيدةُ فاسدةً ولم يعترِها خَلَلٌ، لما ضلَّ سعيُهُم في الحياة الدنيا؛ لأنَّ العقيدةَ الفاسدةَ تجعلُ صاحبَها في ضلالٍ كبير.

والضلال والخلل في العقيدة على مراتب:

أ- فتارة يكون ذلك باختلال العقيدة من أساسها، وأصحاب هذه المرتبة ليس لهم قيمة عند الله تبارك وتعالى، كما نصّ على ذلك في كتابه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[2].

ب- وأُخرى يكون بضلال السعي عملياً، وهذا ناشئٌ - كما أسلفت - من نقصٍ في العقيدة ولو على سبيل الشرك والرياء، فيحبط الله عمله أيضاً؛ لأنّ الآتي إنما أتى به لغير الله تعالى، يقول تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3].

(1) سورة البقرة، الآية: 155.
(2) سورة الكهف، الآية: 105.
(3) سورة الزمر، الآية: 65.

ج- وثالثــة يكون ضلال السعي عملياً متأخّــراً عن العمل، فيحبطه بعد الإتيان به، وفــي هذا ضل قومٌ كثيــرون، وذلك بأنْ يكمِل العبادةَ علــى الإخلاصِ المحضِ والنيــة الصالحة ويكتبها الله في ديــوانِ المخلصينَ، لكن يعرضُ له بعدَ ذلك ما يدفعُهُ لإظهارها؛ ليحصــل له بعضُ الأغراضِ الدّنيويّةِ الرخيصةِ، فينضمُّ إلــى مــا حصّله بها من الخير الآجــلِ خيراً آخرَ عاجلاً قد زيّنــه له الشيطانُ، فيحــدِّث بــه ويُظهره لذلك، فهــذا أيضاً مفســدٌ للعمل وإن سبــق، كما يفسده العجب المتأخر.

وقــد روي أَنَّ رجــلاً قــال للنبــيّ ﷺ: صُمتُ الدهرَ يــا رسولَ الله، فقــال رسولُ الله ﷺ: «**مَا صُمتَ وَلَا أَفْطَرْتَ**»[1]، فهذا من زمرة الأخسرين أعمالاً.

الصفة الثانية ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾:

فهم يحسبــونَ أنَّهم يُحسنونَ صنعاً وما ظنُّوا حســنَ أعمالهم وأفعالهم المخالفةِ للشرع إلَّا لجهلهم بحقوق الله عز وجل وعظمته، ولضعف بصيرتهم، وهم أصناف:

الأول: الكفــار بالله، واليوم الآخر، والأنبياء؛ فإنَّ الله زيّن لكلّ أمة عملها، إنفاذاً لمشيئته، وحكماً بقضائه، وتصديقاً لكلامه.

الثاني: أهل التأويلِ الفاسدِ الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[2]، كأهــل حــروراء والنهروان، ومن عمل بعملهم في يومنا هذا، وخطرهم الآن على المسلمين أشدّ من أعداء الدين، فهم مثلهم وشرٌّ منهم.

(1) النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات ج 2، ص 303.
(2) سورة آل عمران، الآية: 7.

ورد في كتاب الاحتجاج عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ قَالَ: «**خَطَبَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي...، فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُ الْكَوَّاءِ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا الذَّارِيَاتُ ذَرْواً؟ قَالَ الرِّيَاحُ قَالَ فَمَا الْحَامِلَاتُ وِقْراً؟ قَالَ السَّحَابُ قَالَ فَمَا الْجَارِيَاتُ يُسْراً؟ قَالَ السُّفُنُ قَالَ فَمَا الْمُقَسِّمَاتُ أَمْراً؟ قَالَ الْمَلَائِكَةُ... قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ قَالَ كَفَرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَقَدْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ فَابْتَدَعُوا فِي أَدْيَانِهِمْ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ وَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِ ابْنِ الْكَوَّاءِ ثُمَّ قَالَ يَا ابْنَ الْكَوَّاءِ وَمَا أَهْلُ النَّهْرَوَانِ مِنْهُمْ بِبَعِيدٍ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أُرِيدُ غَيْرَكَ وَلَا أَسْأَلُ سِوَاكَ قَالَ فَرَأَيْنَا ابْنَ الْكَوَّاءِ يَوْمَ النَّهْرَوَانِ فَقِيلَ لَهُ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ بِالْأَمْسِ تَسْأَلُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا سَأَلْتَهُ أَنْتَ الْيَوْمَ تُقَاتِلُهُ؟ فَرَأَيْنَا رَجُلًا حَمَلَ عَلَيْهِ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ**»[1].

الثالث: وهم الذين أفسدوا أعمالهم بالرياء، وضيّعوا أحوالهم بالإعجاب، ويلحق بهؤلاء أصناف كثيرة، وهم الذين أفنوا زمانهم النفيس في طلب الخسيس. وقد نبّه الباري تعالى على هذا بقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[2].

والمهمّ في المقام أنَّه حتى نتجنب الخسران المبين علينا أن نعرف حقيقة الأعمال التي تؤدّي إليه، وحقيقة الأعمال التي تجنبنا الوقوع في الخسران والندم. ولَّما أشارت الآية إلى لزوم ترك الشرك: كبيره وصغيره، كان علينا أن نعرف الإخلاص وكيفية تحقيقه حتى نتمكن من تحصيله والعمل به والحفاظ عليه.

(1) الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص 260.
(2) سورة الكهف، الآية: 110.

كيف نحقّق الإخلاص

انطلاقاً من الآية السابقة ندخل إلى أهمّ مسألة في عبادة الله، ألا وهي الإخلاص، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[1].

وينبغي أن يعلم أَنَّه لمَّا كانت طرق الباطل كثيرة ومتنوِّعة، وطريق الحقّ واحداً، وهو الطريق المستقيم الَّذِي جاء به سيّد المرسلين صلوات الله عليه وعلى آله، فحينئذٍ تكون الأبواب المشرّعة أمام الشيطان إِلَى قلب الإنسان كثيرة، ويدعم الشيطان في ذلك ميل النفس البشرية نحو الشهوات، وعسر انقيادها للحقّ، كلّ ذلك يضع العبد المسكين في موضع لا يحسد عليه، قال الشاعر:

إنّي بليت بأربعٍ ما سُلطت ... إلَّا لأجل شقاوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلُّهم أعدائي

إبليس يسلك في طريق مهالكي ... بي والنفس تأمرني بكلّ بلائي

وأرى الهوى تدعو إليه خواطري ... في ظلمة الشبهات والآراء

وزخارف الدنيا تقول أما ترى ... حسني وفخرَ ملابسي وبهائي

فربما يزيّن الشيطان طريق الحقّ فيغوي بالمرء ويوقع به ويعرض الشر في موضع الخير، بحيث يظن أنّه من إلهامات النَفَس الرحماني، لا وسوسة الشيطان وإغوائه، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم، فلا يزال الشيطان يوسوس للإنسان بأمور ويثبتها في لوح نفسه، فيعمر يومه ويخرب أمسه، ويخالف الله ويظن أنّه في طاعته، فيدخل في جملة الأخسرين أعمالاً.

وفي هذا المجال يقول المولى النراقي قدس سره: «**لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة، فالأبواب المفتوحة للشيطان إلى القلب كثيرة، وباب**

(1) سورة البينة، الآية: 5.

الملائكة واحدة؛ ولذا روي أَنَّ النبي ﷺ خطّ يوماً لأصحابه خطّاً وقال: «هذا سبيل الله»، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وشماله فقال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثمّ تلا قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[1]. ثمّ لسهولة ميل النفس إلى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية إلى الباطل التي هي أبواب الشيطان جلية ظاهرة، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبداً، والطرق المؤدية إلى الحق التي هي باب الملائكة خفية، فكان باب الملائكة مسدوداً دائماً، فما أصعب بالمسكين ابن آدم أن يسد هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح باباً واحداً خفياً مسدوداً»[2].

هذا، والسبيل أمام الإنسان إِلَى النجاة هو الإخلاص؛ فإنّ الإخلاص الحقيقي هو تجريد القصد من الشوائب كلها. وهو ضد الرياء والشرك، فمن جاء بطاعة ليراه الناس فهو مراء مطلق، ومن جاء بها وانضم إلى قصد القربة قصدُ غرضٍ دنيويٍ انضماماً تشريكياً ففعله مشوب غير خالص.

مراتب الإخلاص

ثمّ الإخلاص على مراتب، فأعلى مراتبه: الإخلاص المطلق، وهو إخلاص الصدّيقين وإرادة محض وجه الله سبحانه من العمل، دون توقّع غرض في الدارين، كمن يعبد الله حراً؛ لأنّه أهلٌ لذلك، مستغرق الهمّ والفكر بعظمته وجلاله، ويتوقّف تحصيله على أن يتعاظم الله في أنفسنا ليصغر ما دونه في أعيننا، وبالتالي تنقطع النفْسُ عن الطمع بالدنيا، بحيث ما يغلب ذلك على القلب والتفكّر والاشتغال بمناجاته حتى يغلب على قلبه نور جلاله وعظمته، ويستولي عليه حبّه وأنسه.

(1) سورة الأنعام، الآية: 153.

(2) النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، ج1، ص 146.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتقين: «**عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ**»[1].

وفي المقابل كم من عمل يتعب الإنسان فيه نفسه، ويظن أنّها أعمال خالصة لوجه الله تعالى، ويكون فيها مغروراً؛ لعدم عثوره على وجه الآفة فيها، كما حكي عن بعضهم أنّه قال: (قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتُها في المسجد جماعة في الصف الأول؛ لأنّي تأّخرت يوماً لعذر وصليت في الصف الثاني، فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أَنَّ نظر الناس إليّ في الصفّ الأوّل كان يسرّني، وكان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر).

وهذا مطلبٌ دقيقٌ غامض، وقلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقلّ مَنْ يتنّبه له، والغافلون عنه يرون حسناتهم في الآخرة كلّها سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾[2].

آفات الإخلاص

ذكر المولى النراقي في كتابه الجليل جامع السعادات أَنَّ الآفات التي تكدّر الإخلاص وتشوّشه لها درجات في الظهور والخفاء:أجلاها الرياء الظاهر.

الأُولى: وهو أجلاها، وتحصل بتحسين العبادة والسعي في الخشوع فيها في الملأ دون الخلوة؛ ليتأسّى به الناس، ولو كان عمله هذا خالصاً لله لم يتركه في الخلوة؛ إذ من يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرتضي لغيره تركه، فكيف يرتضي ذلك لنفسه في الخلوة؟!

(1) الشريف الرضي، محمد بن الحسين الموسوي، نهج البلاغة: 225، تحقيق وتصحيح: عزيز الله العطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأولى 1414هـ، قم المقدسة.

(2) سورة الجاثية، الآية: 33.

الثانية: الرياء الخفيّ، وهو يحصل بتحسينها في الخلوة أيضاً بقصد التسوية بين الخلوة والملأ، وهذا من الرياء الغامض؛ لأنّه حسّن عبادته في الخلوة ليحسّنها في الملأ، فلا يكون فرقٌ بينهما في التفاته فيهما إلى الخلق دون الخالق؛ إذ الإخلاص الواقعي أن تكون مشاهدة الخلق لعبادته كمشاهدة العجماوات والجمادات، من دون تفاوت أصلاً، فكأنّ نفسه لا تسمع بإساءة العبادة بين أظهر الناس، ثمّ يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظنّ أَنَّ ذلك يزول باستواء عبادته في الخلوة والملأ، وليس كما ظنّه؛ إذ زوال ذلك موقوف على عدم التفاته إلى الخلق في الملأ والخلوة، كما لا يلتفت إلى الجمادات فيهما مع أنّه مشغولُ الهمّ بالخلق فيهما جميعاً.

الثالثة: وهو أَخفاها، وتحصل هذه الدرجة بأن يقول له الشيطان ـ وهو في العبادة في الملأ بعد يأسه عن المكائد السابقة ـ: (أنت واقفٌ بين يدي الله سبحانه، فتفكّر في جلاله وعظمته، واستحى من أن ينظر إلى قلبك وهو غافل عنه! فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه).

وهذا أخفى مكائد الشيطان وخداعه، ولو كانت هذه الخطرة ناشئة عن الإخلاص لما انفكت عنه في الخلوة ولم يخص خطورها بحالة حضور غيره.

علاج هذه الآفة

وعلامة الأمن من هذه الآفة: أن يكون هذا الخاطر مِمَّا يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير سبباً لحضوره، كما لا يكون حضور بهيمة سبباً له، فما دام العبد يفرّق في أحواله وأعماله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة، فهو بعدُ خارجٌ عن صفو الإخلاص مُدَنّس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على

الصخـرة الصماء، كمـا ورد به الخبر، ولايسلم منه إلا من عصمه الله بخفيٍّ لطفه؛ إذ الشيطان ملازم للمتشمّرين لعبادة الله، لا يغفل عنهم لحظة.

يقـول تعالـى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[1]، ويقـول أيضاً: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[2].

وهـذا لا يكـون إلا بتوفيق من الله تعالى، فبيـده الأمر من قبل ومن بعد، ففي دعاء عرفـة للإمـام الحسين عليه السلام: «**أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ**».

مراد الآية: بقاء المؤمن بين الخوف والرجاء

لمـا كشفـت الآية الشريفة عن حالـة مَرَضية في المجتمع وعـن أشخاص يظنّون أنّهم على الصراط المستقيم، وهم عند الله في ضلال مبين.

ولمّا لم تحدّد مَنْ هم هؤلاء إلا بالوصف والانطباق، يبقى المؤمن هنا خائفاً إلى آخر عمره، فيعيش بين الخوف والرجاء، لا هو مأمون الجانب فيستريح، ولا مأيوس المصير فيقنط، بل ويبقى شاعراً بالتقصير؛ إذ قد يكون من الأخسرين أعمالاً طيلة هذه المدة وهو غافلٌ عن حقيقة أمره، فهذه الحالة تحفّزه لإتقان العمل وأدائه على أكمل وجه، بل وعدم الرضا ما دام في معرض القبول والردّ، من دون أن يعيش الإحباط واليأس.

وبالتالـي يتجنّب الغفلة التي تتهدّده دائماً، وقـد تعرضه فعلاً من حين لآخر، فلا يُحَسـب من الغافلين، ولا تنوبه تبعات الغفلة؛ لأنّ مَنْ أغفل قلبه قال عنه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[3].

وقـال أيضـاً: ﴿...وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[4].

(1) سورة الزمر، الآيتان: 2 – 3.
(2) سورة البينة، الآية: 5.
(3) سورة الكهف، الآية: 28.
(4) سورة يونس، الآيتان: 7 – 8.

خاتمة المطاف

الله تبارك وتعالى أعطى الناس قلباً قابلاً للترقيات إلى مراتب الكمالات التي لا تتناهى من المحبة والمعرفة والزهد والفناء والبقاء وهم ضيّعوه بمحبة الدنيا، والرياء، والعجب، والكبر والبغض وأمثالها من الرذائل. والقلب أمير البدن، فلو راقبه وكان دائباً في إصلاحه وتحصيل كمالاته أفاض الله تعالى عليه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ولو اشتغل العبد بإصلاح نفسه لكفى به شغلاً عن العالمين، ولكنّ الغالب على العالمين الاشتغال بالدنيا الفانية؛ إمّا بالمال وإمّا بالجاه وقبول القلوب، ومتى حصل ذلك لا يحتاجون إلى الإصلاح بل ينالون العواقب التي رتَّبها الله تعالى للأخسرينَ أعمالاً بقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[1].

ولنعم ما أوصى به إمام الثورة والأخلاق والعرفان الإمام الخميني قدس سره: «**فاجتهد لأن يكون سرّك داعياً وباطنك طالباً، حتى ينفتح لقلبك أبواب الملكوت، وينكشف لسرّك أسرار الجبروت، ويجري فلكُ عقلِك في بحار الخير والبركات، حتى تصل إلى ساحل النجاة، وتنجو من ورطة الهلكات، وتطير بجناحيك إلى عالم الأنوار، عن هذه القرية الظلمانية ودار البوار.**

وإيّاك وأن تجعل الغاية لهذه الصفات الحسنى والأمثال العليا. التي بها تقوم السماوات والأرضون، وبنورها نوّر العالمين. الشهوات الدنيّة واللذات الداثرة البالية، والأغراض الحيوانية، والكمالات البهيمية والسبعية. وعليك بطلب الكرامات الإلهية والأنوار العقلية، والكمالات اللائقة بالإنسان بما هو إنسان»[2].

اللهمَّ إنِّي أسألُك رضاك، والتوفيق لطاعتك، وحسن العاقبةِ يا ربّ العالمين...

(1) سورة الكهف، الآية: 105.

(2) الإمام الخميني، روح الله الموسوي، شرح دعاء السحر: 11، نشر: مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، الطبعة الأُولى 1416، طهران.

6

اختيار الإنسان وأثره على أعماله وسلوكه

مفاهيم محورية:

- قانون الاختيار في أعمال البشر.
- الآثار المترتّبة على اختيار الإنسان.
- أثر الاختيار على الالتزام بالتكاليف الإلهية.
- أثر عقيدة الاختيار في أخلاق الإنسان.
- الاختيار وعلاقته بقدرة الله المطلقة.

نصُّ الموعظة القرآنية:

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1].

إنَّ مسألتي العدل الإلهي واختيار الإنسان من أهمّ المسائل الاعتقادية؛ إذ تشكّلان واحدة من أهمّ دعائم عقيدة المسلم، بل من أهمّ ركائز الفكر الإسلامي بشكل عام، وتترتّب على هذه العقيدة آثارٌ مهمّة على المستوى المسلكي، الأخلاقي والاجتماعي. ونظراً لأهمّيتها تعرّض القرآن لها في الكثير من المواضع بين تصريح وتلميح، وظهر ذلك بشكلٍ جليٍّ أيضاً في الأخبار الواردة عن النبي الأكرم وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

وسنتناول في هذا الدرس عدّة أمور لها ربط بمطلبي العدل الإلهي والاختيار، انطلاقاً من الآية المباركة المذكورة أعلاه، وذلك ضمن العناوين الآتية:

قانون الاختيار في أفعال البشر

هذه الآية المباركة وقعت في سياق الكلام على محاربة الكفار والمشركين وتكذيبهم للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكفرهم بآيات الله، ليختم جلّ وعلا هذه الفقرة بقانون عام،

(1) سورة فصّلت، الآية: 46.

وهو قانون الاختيار في أفعال البشر، وأنَّ الله قد بيّن لهم أحكامه عبر إرسال الأنبياء بالكتب السماوية، وبعد كونهم مختارين؛ فإنّ عملهم هو الذي سيحدّد مصيرهم من سعادة أو شقاء.

هذا على مستوى السياق، وأمّا إذا أتينا إِلَى نصّ الآية فنجدها مؤلّفة من جملتين شرطيتين تليهما جملة بمثابة تعليل للشرطيتين.

الشرطية الأولى: وهي قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي إنَّ الإنسان أوّلاً هو الذي يعمل، فهو مختار، فإنْ كان عمله صالحاً موافقاً لما يحبُّه المولى وما يأمر به، فهو الذي سيستفيد من آثار ونتائج هذا العمل الصالح والحسن في الدنيا والآخرة، وبالتالي هو مَنْ سيرسم طريق سعادته من خلال عمله.

الشرطية الثانية: وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾؛ أيْ إنَّ الإنسان إذا لم يمتثل أمر مولاه فهو الذي سيتكبّد آثار وتبعات عمله، وبالتالي سيخطّ بذلك مسيره إِلَى جهنم.

وأمّا الجملة التي تلي الشرطيتين فهي قوله عزّ من قائل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وهي بمثابة تعليل للشرطيتين؛ وذلك لأنّ المولى جلّ وعلا عادلٌ يعطي كلّ ذي حقّ حقَّه، ولا يظلم أحداً، فلا يضيع عنده أجر المحسنين العاملين، ويكون عمل كلّ إنسان هو الذي يحدّد مصيره الأخروي من النعيم أو الجحيم.

وعليه، فلنا القول: إنَّ الآية دليل على نفي الجبر؛ إذ إنّه لا يعني إلا أنّ الله قد أجبر الناس على ارتكاب الذنوب ومع ذلك عاقبهم، وهذا معناه أَنَّه ظالمٌ لعبيده، والحال أَنَّ هذه الجملة الأخيرة تنفي ذلك، وتردّ على تلك العقيدة الفاسدة، وتكذّبها.

فالله ـ بحسب الآية ـ قد أعطى القدرة للبشر ليختاروا بين الخير والشرّ، فإن خالفوا واختاروا الشرّ عاقبهم، وإن أطاعوا واختاروا الخير أثابهم. فهو لا يجبرهم على ارتكاب القبائح والذنوب ثمّ يعاقبهم عليها، وإلا لكان ظالماً لهم، وإلى هذا

المعنى أشار الخبر الوارد عن الرضا عليه السلام عندما سُئِل من قِبَل أحد أصحابه: هل يجبر الله عباده على الذنب؟ فأجابه عليه السلام: «**لا، بل يخيّرهم ويمهلهم ليتوبوا**»، فسأله كذلك فهل يكلّفهم ما لا يطيقونه؟ فأجابه عليه السلام: «**كيف يفعل ذلك، وهو يقول:** ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾»[1].

وبالاستفادة من هذا الخبر نكون قد أجبنا على السؤال الذي قد يُطرح حول السبب الكامن في تعبيره جلّ وعلا: ﴿بِظَلَّامٍ﴾؛ إذ لو لم يعطِ الله عباده القدرة والاختيار، ومع ذلك عاقبهم على المعصية، لكان ظلّاماً تعالى عن ذلك علوّاً كبيرا.

وهذه العقيدة القرآنية ممّا يرشد إليها العقل أيضاً؛ إذ مع كون الإنسان مجبراً غير مختار يكون عقابه ظلماً؛ إذ هو غير قادر على الفعل أو الترك، وتكليف غير القادر ظلم، وهو قبيح بحكم العقل، والمولى جلّ وعلا لا يفعل القبيح.

وإن شئتَ فقل: إنَّ الفاعل للظلم لا يخلو عن أربع صور، والله منزهٌ عنها جميعا:

الصورة الأولى: أن يكون الظلم قد صدر منه، وهو جاهلٌ بأنّه ظلم.

الصورة الثانية: أن يصدر منه مع علمه به، ولكنّه مجبورٌ على فعله.

الصورة الثالثة: أن يصدر منه مع علمه به وقدرته على تركه، فيفعله لاحتياجه إليه.

الصورة الرابعة: أن يصدر منه مع علمه به وقدرته على تركه وعدم الحاجة إليه، ولكنّه يفعله عبثاً ولهواً.

وربّنا تبارك وتعالى عالمٌ، وفاعلٌ مختارٌ مقتدر، وغنيٌّ عن العالمين، وحكيمٌ لا يفعلُ ما فيه لهوٌ ولعب.

(1) الشَّيْخ الصدوق، عيون أَخبار الرضا عليه السلام، ج 1، ص 113.

فلمّـا انتفـت كلّ أسباب الظلم في حقّـه تعالى، وكان إثبات أيٍّ منهـا له مستلزماً للنقص فيه، مع أنّه محض الكمال، نكون قد أثبتنا بطريق عقلي أنّه تعالى عادل.

ونثبـت بعـد ذلك اختيـار الإنسان بقولنـا: بمـا أَنَّ اللّه عادلٌ فلا يعقـل أن يكون الإنسـان مجبـوراً؛ إذ لو عاقبه علـى معصيته كان ظلماً، والمفروض أَنَّه عادلٌ ليس بظـلام للعبيـد، وتتناسب هذه العقيدة أيضاً مع وجدان الإنسـان القائل بأنّ الإنسان مختـار. وهـذا ما يدركـه كلٌّ منّا بوجدانـه. وتشير الروايـات الواردة عـن أهل بيت العترة عليهم السلام إلى هذا المعنى، وإليك نموذجاً منها:

ـ ما رواه الشَّيْخ الصدوق بإسناده إِلَى الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ سَأَلَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَسَاسَ الدِّينِ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ وَعَلَمَهُ كَثِيرٌ، وَلَا بُدَّ لِعَاقِلٍ مِنْهُ؛ فَاذْكُرْ مَا يَسْهُلُ الْوُقُوفُ عَلَيْـهِ وَيَتَهَيَّأُ حِفْظُهُ، فَقَالَ: «**أَمَّـا التَّوْحِيدُ فَأَنْ لَا تُجَوِّزَ عَلَى رَبِّكَ مَا جَازَ عَلَيْكَ، وَأَمَّا الْعَدْلُ فَأَلَّا تَنْسُبَ إِلَى خَالِقِكَ مَا لَامَكَ عَلَيْهِ**»[1].

وما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عندما سُئِل عن التوحيد والعدل: «**التَّوْحِيدُ أَلَّا تَتَوَهَّمَهُ، وَالْعَدْلُ أَلَّا تَتَّهِمَهُ**»[2].

الآثار العقدية المترتّبة على العدل الإلهي واختيار الإنسان

1 - لغوية الوعد والوعيد مع الإجبار:

الوعد هو ما ذكره اللّه من خيرات تنتظر المطيعين كإدخالهم إلى الجنّة، والوعيد هو ما ذكره اللّه من عذابات تنتظر العاصين كإدخالهم إلى النار، ولو لم يكن الإنسان مختاراً فلا معنى للوعد والوعيد؛ لعدم مؤاخذة المجبور على الفعل في فعله.

(1) الشَّيْخ الصدوق، معاني الأخبار، ص 11، نشر: مكتب النشر التابع لجماعة المدرسين 1403.
(2) الشريف الرضي، محمد بن الحسين الموسوي، نهج البلاغة، ص 501.

2 - بطلان الثواب والعقاب مع الجبر:

لولـم يكـن الإنسان مختاراً لمـا كان معنى للثـواب والعقـاب؛ إذ المحسن حينها مجبورٌ على إحسانه والمسيء مجبور على إساءته.

وإلـى هذيـن الأمريـن أشار أميـر المؤمنين عليه السلام فـي الخبر المـرويّ عنه في الكافي: «**كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام جَالِساً بِالْكُوفَةِ بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ صِفِّينَ، إِذْ أَقْبَلَ شَيْخٌ فَجَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرْنَا عَنْ مَسِيرِنَا إِلَى أَهْلِ الشَّامِ، أَبِقَضَاءٍ مِنَ اللهِ وَقَدَرٍ؟ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: أَجَلْ يَا شَيْخُ، مَا عَلَوْتُمْ تَلْعَةً وَلَا هَبَطْتُمْ بَطْنَ وَادٍ إِلَّا بِقَضَاءٍ مِنَ اللهِ وَقَدَرٍ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: عِنْدَ اللهِ أَحْتَسِبُ عَنَائِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ يَا شَيْخُ، فَوَ اللهِ لَقَدْ عَظَّمَ اللهُ الْأَجْرَ فِي مَسِيرِكُمْ وَأَنْتُمْ سَائِرُونَ وَفِي مَقَامِكُمْ وَأَنْتُمْ مُقِيمُونَ وَفِي مُنْصَرَفِكُمْ وَأَنْتُمْ مُنْصَرِفُونَ، وَلَمْ تَكُونُوا فِي شَيْءٍ مِنْ حَالَاتِكُمْ مُكْرَهِينَ وَلَا إِلَيْهِ مُضْطَرِّينَ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ وَكَيْفَ لَمْ نَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ حَالَاتِنَا مُكْرَهِينَ وَلَا إِلَيْهِ مُضْطَرِّينَ وَكَانَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ مَسِيرُنَا وَمُنْقَلَبُنَا وَمُنْصَرَفُنَا؟! فَقَالَ لَهُ: وَتَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ قَضَاءً حَتْماً وَقَدَراً لَازِماً؟! إِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالزَّجْرُ مِنَ اللهِ، وَسَقَطَ مَعْنَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَلَمْ تَكُنْ لَائِمَةٌ لِلْمُذْنِبِ وَلَا مَحْمَدَةٌ لِلْمُحْسِنِ، وَلَكَانَ الْمُذْنِبُ أَوْلَى بِالْإِحْسَانِ مِنَ الْمُحْسِنِ وَلَكَانَ الْمُحْسِنُ أَوْلَى بِالْعُقُوبَةِ مِنَ الْمُذْنِبِ، تِلْكَ مَقَالَةُ إِخْوَانِ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَخُصَمَاءِ الرَّحْمَنِ وَحِزْبِ الشَّيْطَانِ وَقَدَرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمَجُوسِهَا**»[1].

ومثلـه ما رواه في الاحتجاج: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَيْفَ لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مُطِيعِينَ مُوَحِّدِينَ وَكَانَ عَلَى ذَلِكَ قَادِراً؟ قَالَ عليه السلام: لَوْ خَلَقَهُمْ مُطِيعِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ثَوَابٌ؛ لِأَنَّ الطَّاعَةَ إِذَا مَا كَانَتْ فِعْلَهُمْ لَمْ يَكُنْ جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ، وَلَكِنْ خَلَقَ**

(1) الشيخ الكُلَيْني، الكافي، ج 1، ص 155.

خَلْقَهُ فَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِرُسُلِهِ، وَقَطَعَ عُذْرَهُمْ بِكُتُبِهِ؛ لِيَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يُطِيعُونَ وَيَعْصُونَ وَيَسْتَوْجِبُونَ بِطَاعَتِهِمْ لَهُ الثَّوَابَ وَبِمَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ الْعِقَابَ» قَالَ: فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مِنَ الْعَبْدِ هُوَ فِعْلُهُ، وَالْعَمَلُ الشَّرُّ مِنَ الْعَبْدِ هُوَ فِعْلُهُ؟ قَالَ: **«الْعَمَلُ الصَّالِحُ مِنَ الْعَبْدِ بِفِعْلِهِ وَاللهِ بِهِ أَمَرَهُ، وَالْعَمَلُ الشَّرُّ مِنَ الْعَبْدِ بِفِعْلِهِ وَاللهِ عَنْهُ نَهَاهُ»** قَالَ ـ أيْ: الزنديق ـ أَلَيْسَ فِعْلُهُ بِالْآلَةِ الَّتِي رَكَّبَهَا فِيهِ؟ قَالَ: **«نَعَمْ، وَلَكِنْ بِالْآلَةِ الَّتِي عَمِلَ بِهَا الْخَيْرَ قَدَرَ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي نَهَاهُ عَنْهُ»**. قَالَ: فَإِلَى الْعَبْدِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؟ قَالَ: **«مَا نَهَاهُ اللهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يُطِيقُ تَرْكَهُ وَلَا أَمَرَهُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ فِعْلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ صِفَتِهِ الْجَوْرُ وَالْعَبَثُ وَالظُّلْمُ وَتَكْلِيفُ الْعِبَادِ مَا لَا يُطِيقُونَ»**. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَهُ اللهُ كَافِراً أَيَسْتَطِيعُ الْإِيمَانَ وَلَهُ عَلَيْهِ بِتَرْكِهِ الْإِيمَانَ حُجَّةٌ؟ قَالَ عليه السلام: **«إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ جَمِيعاً مُسْلِمِينَ أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، وَالْكُفْرُ اسْمٌ يَلْحَقُ الْفِعْلَ حِينَ يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ وَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ الْعَبْدَ حِينَ خَلَقَهُ كَافِراً، إِنَّهُ إِنَّمَا كَفَرَ مِنْ بَعْدِ أَنْ بَلَغَ وَقْتاً لَزِمَتْهُ الْحُجَّةُ مِنَ اللهِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْحَقَّ فَجَحَدَهُ، فَبِإِنْكَارِهِ الْحَقَّ صَارَ كَافِراً»**[1].

3 - انتفاء الحاجة لإرسال الأنبياء:

لو لم يكن الإنسان قادراً على اتّباع الأنبياء ومختاراً في ذلك فلا معنى لإرسالهم أصلا.

الإيمان بالاختيار وأثر ذلك على التفاعل مع التكاليف الإلهية

من الواضح أنّه مع الإعتقاد بكون الإنسان غير مختار فلا معنى للتكليف والبعث والزجر وعليه، فالإنسان عندما يكون معتقداً بأنّه مجبرٌ على أفعاله غير قادر على تحديد مصيره فمهما وصل إليه أمرٌ أو زجرٌ من مولاه، فإنّ ذلك لن يحرّكه أبداً؛ لأنّه يقول مصيري محدّدٌ ونتيجتي محسومة مهما فعلت، وأنا مجرّد أداة لتنفيذ الخطّة المعدّة مسبقاً لي، فلِمَ أُتعب نفسي وأشقّ عليها فهذا لا تأثير له.

(1) الطبرسي، الاحتجاج، ج 2، ص 341.

وأمّا لو كان الإنسان سوياً في اعتقاده، متّبعاً لحكم عقله القطعي بأنّه مختار، وبأنّ الله عادلٌ لا يفعل الظلم، فإنّه لا محالة سيتحرّك وينبعث وينزجر تبعاً لأوامر المولى ونواهيه، بل سيكون لديه حافزٌ أكبر للطاعة، كلّما ازداد معرفةً بعدالة ربّه واستشعر رقابة خالقه أكثر اقترب من الطاعة أكثر، وابتعد عن المعصية أكثر، وقد أشارت الرواية المتقدّمة الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام إلَى ذلك في قوله: «**إِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالزَّجْرُ مِنَ اللهِ**».

1 - آثار عقيدة الاختيار على المستوى الأخلاقي:

الأخلاق عبارة عن مجموعة من الصفات الحسنة أو السيئة، أو فقل السجايا الذاتية للإنسان. وعلم الأخلاق هو العلم المبحوث فيه عن أسس اكتساب الصفات الحسنة، وطرق محاربة الصفات السيئة. وهذا العلم مبتنٍ على ركيزة أساسية، وهي إمكانية تغيير الصفات السيئة الموجودة في الإنسان أو تنمية الصفات الحسنة، فلو لم تكن قابلة للتغيير والتطوير لأصبحت كلّ تعاليم الأنبياء بلا فائدة. والقول بإمكانية تغيير أخلاق الإنسان أو تطويرها مساوق للقول بأنّه مختارٌ. فالمجبور لا يستحقّ مدحاً ولا ذمّاً من جهة، ويتذرّع دائماً بأنّه لا يستطيع تغيير نفسه وسجاياه؛ لأنّه غير مختار. فكما أَنَّ عقيدة الاختيار وأنّ الإنسان يحدّد مصيره بعمله خير دافع للسير والسلوك ولتهذيب النفس الإنسانية ونزع الرذائل منها وغرس الفضائل فيها، كذلك فإنّ عقيدة الجبر في المقابل تشكّل ذريعة للفاسدين والمفسدين ليتفلّتوا من تهذيب أنفسهم وتحسين سجاياهم. ولعلّه إِلَى هذا المعنى يشير أمير المؤمنين عليه السلام في قوله المتقدم: «**فَلَمْ تَكُنْ لَائِمَةٌ لِلْمُذْنِبِ وَلَا مَحْمَدَةٌ لِلْمُحْسِنِ**».

فإذاً، لو لم نعتقد بالاختيار لبطلت المنظومة الأخلاقية من أساسها، ولما كان ثمّة معنى لما ورد عن خير الخلق أجمعين صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»[1]، ولما كان معنى للروايات الكثيرة الحاثة على مجاهدة النفس وتحسين الخلق.

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 11، ص 187.

2 - آثار عقيدة الاختيار على المستوى الاجتماعي:

المجتمع هو تكتّل بشري يجمع أفرادَه انتماءٌ فكريٌّ أو مكانيٌّ، وهو محلٌّ للظواهر والتغيّرات، وقد ألقيت على عاتق المجتمع بما هو كذلك أو على الأفراد بلحاظ انتمائهم إليه كثيرٌ من الوظائف والتكاليف الشرعية، كفريضة الجهاد وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدّت هاتان الفريضتان من أهمّ الأمور التي قام بها الدين، ولكنّ كثيراً من هذه التكاليف لا يجدها الإنسان متوجّهة إليه مالم يكن مؤمناً بأنّه مختار؛ إذ مَنْ يعتقد بأنّ الله قد أجبر العصاة على فعل المعاصي والمطيعين على فعل الطاعة كيف يستوعب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ فكيف يأمر بالمعروف من قد أُجبر على فعل المنكر؟! وكيف يُنهى عن فعل المنكرات من يفعلها عن غير اختيار؟!

ثمّ كيف ينصر المظلوم من يعتبر الظالم مجبوراً على فعل الظلم؟! وكيف - مع توفر الشروط والظروف المناسبة - يقوم على الدولة الجائرة من يعتبر الخليفة مجبوراً على الجور وغير مختار في أفعاله.

وإذا نظرنا إلى التاريخ فإنّنا نجد أَنَّ حكومة معاوية ويزيد وغيرهم من حكام بني أمية وبني العباس يعملون ليل نهار للترويج لعقيدة الجبر؛ ليبرّروا أفعالهم الشنيعة، ولتخضع الرعية لهم؛ إذ لا يرونهم - حينئذٍ - مقصّرين فيما يفعلون.

وأمّا الإنسان المعتقد بالاختيار فيرى نفسه مسؤولاً في الأمور الاجتماعية والسياسية، فيسعى ليرفع الظلم بقدر استطاعته، ولتطبيق حكم الله على الأرض بحسب مقدوره.

الاختيار وعلاقته بقدرة الله المطلقة

ينبغي الالتفات إلى أنّنا حينما كنّا نقول بأنّنا نعتقد بكون الإنسان مختاراً لم يكن القصد عزله عن خالقه كلياً، وتفويض الأمر إليه من دون أن يكون لله دخل في خلقه، بل المقصود من قولنا بأنّا نؤمن بالاختيار: أَنَّ الله منحهم الاختيار، وهو المالك لما

ملّكهم والقادر على ما أقدرهم عليه، من دون أن يكون قد أجبرهم. فأفعالنا من جهة هي أفعالنا الحقيقية ونحن أسبابها الطبيعية، وهي تحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله جل وعلا؛ لأنّه معطي الوجود، فنحن لم نجبر على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي؛ إذ لنا القدرة والاختيار فيما نفعل، ولم يفوّض خلق أفعالنا حتى تكون قد خرجت عن سلطانه بالكلية. وقد ورد هذا عن أئمّة الهدى عليهم السلام، وأكتفي بذكر نموذجين من ذلك:

أحدهما: الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْوَشَّاءِ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ فَقُلْتُ: اللّه فَوَّضَ الْأَمْرَ إِلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ: «**اللّهُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ**» قُلْتُ: فَجَبَرَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي؟ قَالَ: «**اللّهُ أَعْدَلُ وَأَحْكَمُ مِنْ ذَلِكَ**»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**قَالَ اللّه: يَا ابْنَ آدَمَ، أَنَا أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي، عَمِلْتَ الْمَعَاصِيَ بِقُوَّتِيَ الَّتِي جَعَلْتُهَا فِيكَ**»[1].

ثانيهما: ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام: «**أَنَّهُ ذُكِرَ عِنْدَهُ الْجَبْرُ وَالتَّفْوِيضُ؛ فَقَالَ إِنَّ اللّه لَمْ يُطَعْ بِإِكْرَاهٍ وَلَمْ يُعْصَ بِغَلَبَةٍ وَلَمْ يُهْمِلِ الْعِبَادَ فِي مُلْكِهِ، هُوَ الْمَالِكُ لِمَا مَلَّكَهُمْ، وَالْقَادِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنِ ائْتَمَرَ الْعِبَادُ بِطَاعَةٍ لَمْ يَكُنِ اللّه عَنْهَا صَادّاً وَلَا مِنْهَا مَانِعاً، وَإِنِ ائْتَمَرُوا بِمَعْصِيَةٍ فَشَاءَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ فَعَلَ، وَإِنْ لَمْ يَحُلْ وَفَعَلُوهُ فَلَيْسَ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَهُمْ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: مَنْ يَضْبِطْ حُدُودَ هَذَا الْكَلَامِ فَقَدْ خَصَمَ مَنْ خَالَفَهُ**»[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 157.

(2) الطبرسي، الاحتجاج، ج 2، ص 414.

7

مطابقة الأقوال للأفعال

(كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ)

مفاهيم محورية:

- بين الوعد والوعيد.
- ما الذي مقته الله في المؤمنين؟
- الصف المرصوص.
- كبر مقتاً.
- المؤمن يوبَّخ ويُعاتَب.
- عتب الله على المؤمن بقدر محبته له.

نصُّ الموعظة القرآنية:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[1].

بين الوعد والوعيد

إِنَّ كلّ مَن يتأمّل في هذه الآية وما تلاها تأمّل وعي وبصيرة يلتفتُ إِلَى أَنَّها ترمي إِلَى تحقيق غرضين:

أ. الترغيب في الجهاد في سبيل الله، ومقاتلة أعدائه وأعداء دينه، وتحرّضهم على ذلك، وعلى ضرورة أنْ يشدُّوا العزم، ويعقدوا الهمم على هذا الأمر المهم والخطير، وهو القتال في سبيل الله.

فالآية ذكرت وبشكلٍ صريح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾، ولا شكّ في أَنَّ ما يحبّه الله عزّ وجلّ فإنَّه يرغّب المؤمن في القيام به وارتكابه.

(1) سورة الصف، الآيات: 2 – 4.

ب ـ كما أَنَّ الآية بيّنت جانباً سلبياً في حياة المؤمنين، وهو: أَنَّ عليهم أَنْ لا يقولوا ما لا يفعلون، ولا يُخلِفوا فيما يعِدون؛ فإنّ هذا يستوجب مقتاً من الله وغضباً شديداً، وبالتالي، قد ينجرّ الأمر إِلَى الطرد من رحمته الواسعة.

سبب النزُّول

من أسباب نزول هذه الآيات: أَنَّ جماعةً من المؤمنين كانوا يقولون: إذا لقينا العدو لن نفرَّ ولن نرجع عنهم، إِلَّا أَنَّهم لم يَفُوا بما قالوه يوم أُحد، حتّى شُجَّ وجهُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكُسِرت رباعيّته المباركة[1].

ومن هنا يُعرف الوجه في اجتماع الحديث عن الجهاد مع الاتّصاف بصفة القول بما لا يفعلون في هذه الآيات المباركة.

ما الَّذِي مقته الله في المؤمنين؟

عرفنا أَنَّ سبب النزول كان يرتبط بالجهاد في سبيل الله، وفرار كثيرٍ من المؤمنين في غزوة أُحد، حيث لم يلتزموا بما التزموا به على أنفسهم، إِلَّا أَنَّ الآية المباركة يستفاد منها أَنَّها بصدد التوبيخ على أيّ تخلُّفٍ في الفعل عن القول، الأمر الَّذِي يعني: ضرورة أَنْ يكون قولُ المؤمن توأمَ عمله، فيبقى ثابتاً في مواقفه، لا يتزلزل أو يحيد عمّا قاله والتزم به، ولا يُخلف وعده، أو ينقض بعهده، أو يتثاقل عن الخروج إِلَى ساحات الوغى نصرةً لدينه وإعزازاً لشريعته، وما إِلَى ذلك من أشباه هذه الالتزامات[2].

فكم وكم مراراً ضربنا على صدورنا، وأخذنا على عاتقنا في مجالس السّهر والسّمر، ولبَّيْنا بالقول: لبَّيْك لبَّيْك، ولكن ما إنْ تحِنْ ساعةُ الجدّ حتى ترى كُعُوبَنا تضربُ برؤوسنا لسرعة الفرار من الواجب.

(1) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج 18، ص 275.
(2) (م.ن)، ص 276.

وما أَبْعَدَ ما بين هؤلاء وبين سبعةٍ من فقراء الأنصار جاؤوا إِلَى الرسول ﷺ وطلبوا منه أَنْ يزوّدهم بما يمكّنهم من الاشتراك في الجهاد، فاعتذر منهم النبيّ ﷺ بعدم وجدانه ما يطلبون، فتولَّوا وأعينهم تفيضُ من الدمع، فعُرفوا بالبكائين، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[1].

فهؤلاء يحزنون ويتحسّرون ويتأسّفون على ما امتنع في حقّهم ولم يقدّم إليهم، والحال أَنَّ رغبتهم الحثيثة كانت على المضي إِلَى الجهاد وساحات الوغى، وهذا آية الإيمان، وعلامة الشوق إِلَى الخير، وإلى الله سبحانه وتعالى، وإلى إطاعة أوامره والاجتناب عن نواهيه. ويسبّب هذا الحزنُ دفعَ الإنسان ـ دائماً ـ إِلَى جهة الكمال[2].

الصّف المرصوص

هل المطلوب القتال كيفما اتّفق؟ وكيفما شئنا؟

نلاحظ في الآية أَنَّ التأكيد ليس على القتال بما هو قتال، وكيف اتّفق، بل على قتالٍ من نوعٍ خاص تتجلّى فيه مظاهر الوحدة والانسجام التّام، كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء القتال الَّذِي يعكس وحدة القلوب والأرواح، ويعكس العزائم الحديدية الراسخة في مشهدٍ متراصٍّ ليس فيه تصدّع أو خلل.

وما دام أَنَّ العدو يزحف كالسيل العارم المدمّر والهادر، فإنّه لا نجاة لنا من تبعاته إِلَّا بأَنْ نشكّل سدّاً محكماً في وجهه، وأَنْ لا نتساهل مع كلّ جزءٍ جزءٍ من هذا السدّ؛ فإنّ أيّ ثغرةٍ يُحدثها العدوّ في هذا السدّ فسوف يكون لها آثارٌ خطيرةٌ ووخيمة.

أجل، هكذا ينبغي أَنْ يكون القرآن حاضراً بيننا، نبثّه وَجَعَنا وشكوانا، فيغدق علينا تِرياق الحياة الشامخة والعزيزة.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 92.

(2) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص 301 (بتصرّف).

أجل، لو فتحنا مغاليق هذه الآية لوجدنا أنَّها ركّزت على مسألة مهمّة: وهي لا بدّية أنْ يكون الجسم الجهادي بكافّة أقسامه ومتفرّعاته بمنزلة بنيان محكم، يشدّ بعضُه أزر بعض؛ فاليد اليسرى عونُ اليد اليمنى، وإحدى العينين تُرْفِدُ الأخرى، والحركة الجهادية متوزّعة بين القدمين ومتّكئةٌ عليهما، والقاعدة الشعبية مرتبطةٌ ارتباطاً عضوياً مع أُولي الأمر والنهي الَّذين يمثّلون الرأس من الجسد.

هذا النمط الجهادي الَّذي دعا إليه الله ورغّب فيه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

كما قد حذّر من المشهد المضاد بقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1]، في أجمل تعبيرٍ يمكن أن يخطر على البال، فالتنازع يؤدّي إِلَى الفشل، والفشل مصيره إِلَى ذهاب صولتكم وقوّتكم وشوكتكم ودولتكم.

كَبُرَ مقتاً

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

تعرّضت هذه الآية المباركة لذكر واحدةٍ من الصِّفات المذمومة التي ينبغي للمؤمن تجنُّبها والتنزّه عنها، وهي: (أنْ لا يقف المؤمن عند قوله)، فكأنّ الكلام لا يزال في وثاق المؤمن ما دام لم يخرج من فيه، فإذا خرج صار رهينَ كلامه وأسيرَ أقواله، على حدّ ما يُروى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْكَلَامُ فِي وِثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وِثَاقِهِ**»[2]، وقال أيضاً: «**إِذَا تَكَلَّمْتَ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتْكَ، وَإِذَا أَمْسَكْتَهَا مَلَكْتَهَا**»[3].

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 46.

(2) الشريف الرضي، محمد بن الحسين الموسوي، نهج البلاغة، ص 485، تحقيق وتصحيح: عزيز الله العطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأولى 1414هـ، قم المقدسة.

(3) غرر الحكم، ص 4084.

المؤمن يُوَبَّخ ويُعَاتَب

تكفّلت هذه الآية توبيخاً مغلّظاً واستنكاراً عالي اللهجة للمؤمنين: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

والسبب في ذلك: اشتمال بعضهم على أخلاق وصفات بطبيعتها تُبعِد المرءَ عن الله تعالى، وهي: قولهم: ما لا يفعلون.

وهذه أَخلاق لا تتلاءم مع المؤمن الَّذِي يعيش دوماً في محضر الله... فإنَّ العالَم كلَّه في محضر الله... والذي يفترض به أن لا يكون غافلاً عنه تعالى، وأنْ يكون شاعراً بمعيّته له، وأنّه تعالى معه في كلّ حركاته وسكناته وأفعاله وأقواله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

- أليس من أَحبّ شخصاً كان دائم التفكير فيه؟!
- ألا يسعى دوماً لجعل أفعاله مطابقةً لما يقرّبه من محبوبه؟!
- هل يحسن أن يتكلّم بكلام يجعل المحبوبَ يُعرضُ عنه ويَحْرَدُ عليه؟!
- أبداً... هذا بعيدٌ من ساحة العشق.

إذاً، فما بالُ بعضنا يلتزم على نفسه أمامَ الله وأمامَ الناس، ثمّ لا يلبث أنْ يتراجع عمّا قال هل يبغي من عمله هذا معاداة الله؟!

أيّها العزيز!

إنَّ من السّمات الأساسية للمؤمن الصادق هو الانسجام التّام بين أقواله وأفعاله، وكلّما ابتعد الإنسان عن هذا الأصل كان أبعدَ من حقيقة الإيمان.

(1) سورة الصف، الآيتان: 2 – 3.
(2) سورة الحديد، الآية: 4.

عتبُ الله تعالى على المؤمن بقدر محبّته له

من الغريب حقّاً والملفت للنظر طريقة مخاطبة الله تعالى الشريحةَ الواسعةَ مِمَّن آمن به واعترف بألوهيته وأقرَّ بعبوديته. فإنّ الحقّ تعالى اسمه قد صدّر بما يربط ويجمع بين الله والمؤمنين، وبما يُمَتِّن العلاقة بينهما، فخاطبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مقدّماً في خطابه محاسن العباد، وحسناتِ أفعالهم، ومعترفاً بالقَدْر الَّذي أَتَوا به اتّجاه خالقهم ومربّيهم من الإيمانِ به عزّ اسمه.

ثُمّ عقَّب بعد هذا بذكر ما قاموا به مِمَّا كان موضعَ سخطه، ومحطّ غضبه، ومعرضَ توعّده وتهديده مستنكراً عليهم: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، فإنَّه ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، فهو من الأعمال الممقوتة والمبغوضة لديه تعالى بغضاً شديداً، وفاعله مستحقٌّ جنهّم.

ولعلّ السرّ في تقديم المحاسن على قبائح الأفعال أمران:

الأوّل: إنَّ القرآن الكريم لمّا كان كتابَ هداية وتربية يعمل على تغذية الروح وتربيتها كما يعمل على تغذية الفكر والعقل، هَدَفَ من خلال هذا التوبيخ المغلّظ أنْ يقول لهؤلاء المؤمنين: يا أيُّها الَّذين يُفترض أَنَّكم آمنتم بي!

لا تتعرّضوا لسخطي وغضبي...

لا تتشبّهوا بأهل النفاق الَّذين يقولون ما لا يفعلون؛ فإنّ لأهل الإيمان سلوكاً وعلامات، ولأهل النفاق سلوكاً وعلامات، وإنّما يستدلّ على الصالحين بعلاماتهم وسلوكهم، وعلى المنافقين بعلاماتهم وسلكهم، والتي منها: أنْ يقولوا ما لا يفعلون.

ناداهم بوصف الإيمان تعريضاً بأنَّ الإيمان من شأنه أنْ يردع المؤمن عن أنْ يخالفَ فعلُهُ قولَه فيما وعد به من خير وإحسان والتزام تجاه الفرد أو المجتمع.

الثاني: الإشارة إِلَى معنى خفيّ ولطيف؛ وذلك أَنَّ الإنسان في مسيرته في الحياة ربما يتعثّر، أو يخطئ هنا أو هناك، بل ربّما يتعمّد في بعض الأحيان.

وكلّ ذلــك لا ينبغي أنْ يجعلنا نتناسى الماضــي، وما قدّمه من خير وعمل صالح، بل لا بدّ من تذكيره بماضيه الإيماني، والصلاح الَّذِي كان عليه قبل مساوئ الأخلاق وذميم الصفات؛ أيّ على قاعدة: (إنْ كان ولا بدّ، فاسقه ماءً ثمّ اذبحه).

في التوبيخ والعتاب صلاح أولى الألباب

كمــا أَنَّ الخضر عليه السلام خرق السفينة وكان في ذلك صلاحُ حال أهلها، واستقامة أمورهــم، كذلــك الآيــة المباركة تهدف مــن خلال هــذا التعنيف والتوبيــخ والخرق المعنــوي لسفينة النفس الأمارة بالســوء، أنْ تصلح حال العبــاد، فيما يرتبط بأمور دنياهم وآخرتهم.

قال العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير الميزان:

«والصــالحون مــن هــؤلاء المؤمنين إنَّما صَــلُحوا نفســاً، وجَلُّوا قَــدْراً بالتربية الإلهية التي تتضــمّنها أمثال هذه التوبيخات والعقابات المتوجهة إليهم تدريجاً، ولم يتّصفوا بذلك من عند أنفسهم»[1].

فــإنّ المؤمن يُصنعُ على عيــن الله تعالى وتحت نظره، يرعى مولاه شؤونه، ويربّيه على حدّ قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[2].

إلهي، خصّني برحمةٍ من عندك جامعةٍ مانعةٍ، أبلغ بها خيرَ الدّنيا والآخرة.

من أين لي النجاة يا ربّ ولا تُستطاع إلَّا بك...

إلهي، أصلح حالي، أفعالي وأقوالي...

(1) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج 19، ص 248.

(2) سورة طه، الآية: 39.

8

الرفق في القرآن الكريم

مفاهيم محورية:

- الرفق واللين واللطف هو الأصل.
- الرفق هداية الخلق إلى الحق.
- مدح الرفق في الروايات.
- الله رفيق يحب الرفق.
- منظومة العلم والحلم والرفق.
- الرفق في حقوق المؤمنين.

نصُّ الموعظة القرآنية:

خاطب الله سبحانه نبيّه الكريم ﷺ قائلاً: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1].

الرفق واللين، واللطف هو الهدف

الخُرُق والعنف ظاهرتان سلبيتان في طبيعة الإنسان ويُقابلهما ملكة اللين والرفق، وأصل الرفق في اللغة: النفع، ومنه قولهم: أرفق فلان فلاناً إذا مكّنه مما يرتفق به. ورفيق الرجل: من ينتفع بصحبته، ومرافق البيت: المواضع التي ينتفع بها[2].

والذي يعنينا من الرفق هنا، هو ما يحمل لنا معاني اللين واللطف والسهولة واليسر، لما لها من دور مهم في حياة المؤمن الرسالي، وما يؤدّيه من مهام وأدوار في حركته الرسالية الواعية بين أفراد وشرائع المجتمع بكلّ أطيافه، وما لها من تأثير جميل يدلّ على حسن وجمال المتلبّس به، واستقامة ذاته واعتدال تصرّفاته؛ إذ إنَّ الرفق ليس مستهدفاً للغير في مهمته وتأثيراته فحسب، بل هو يبدأ من الذات ليشمل

(1) سورة آل عمران، الآية: 159.

(2) الرازي، أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا، مختار الصحاح، ص251،طبع: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

غيرها من الأفراد والمجتمعات، ويوصل إليها رسالة التكافل الاجتماعي بأبهى صورة.

وقد أكّد الإسلام العزيز على هذه السجية الفاضلة والخصلة النبيلة داعياً أتباعه ومحبّيه إلى التحلّي بها وتجسيدها في أرض الواقع العملي؛ لتؤدّي إلى الأهداف المطلوبة. والذي صنعه الإسلام على صعيد العنصر الأخلاقي بجميع أركانه ومظاهره كالصدق والأمانة والبرّ والإحسان والرفق والعفو والرحمة والحبّ والسلام وغير ذلك...، إنّما هو على نحو التقدير والتنظيم والإحياء، لا على نحو الفرض المتعالي على الطبيعة البشرية؛ لأنّ العنصر الأخلاقي عنصر فطري ثابت في الفطرة التي فطر الله عليها عباده، ولا تبديل لخلق الله، فمهما حاولت الأفراد أو الشعوب في زمن من الأزمان لأجل قلب القيم وتجاهل أصالتها فإنّها لا تستطيع أن تدعو بوضوح إلى إشاعة الكذب والخيانة والخسّة والدناءة؛ لأنّ المبدأ الأخلاقي أصالة في الفطرة.

الرفق هداية الخلق إلى الحق

اللّين في المعاملة هو الرفق، ففي آية الموعظة يكون المعنى: أَنَّ لَيِّنَكَ يا رسول الله ﷺ لهم سببٌ يوجب دخولهم في الدين؛ لأنّك تأتيهم مع سماحة أخلاقك وكرم سجيتك بالحجج والبراهين[1].

فلولا هذا الرفق الذي اعتمده رسول الله ﷺ مع مَنْ أرسل إليهم لما تمكّن من استقطاب الناس حول رسالته؛ إذ أنّ الفظاضة والغلظة المناقضة للرفق واللين إذا ما اعتُمدت خياراً منهجياً في التبليغ والدعوة إلى الحق فإنَّ مردودها سيكون عكسياً، فالناس بحاجة إلى كنف رحيم، ورعاية فائقة، وبشاشة سمحة، وإلى ودٍّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، وهم بحاجة إلى قلبٍ كبيرٍ يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنّيهم بهمّه، ويجدون عنده دائماً

(1) انظر: الطبرسي، أبو علي فضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 2، ص 869.

الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والودّ والرضا.

وتعميقاً لروح الرفق واللين التي يريدها الله تعالى في الدعوة إلى الحق، جاء التأكيد في تلك الآية المباركة نفسها على ما يجسّد حالة الرفق واللين العملي بين يدي المؤمنين، في جملة مكارم الأخلاق التي اهتمّ الإسلام بتحقيقها على النحو الأكمل وإشاعتها بين الناس، فهي تأمر بالعفو لمن يُسيء والغفران لمن يُخطئ؛ ليتجلّى الرفق ويتمظهر اللين في حركة التغيير والإصلاح على منهجية المبلغ الرسالي ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.

ولمزيد من الرفق أمرت الآية المتقدّمة الرسول الأعظم ﷺ ومن يقتدي به من باب أوْلى أن يشاور أولئك الذين صدر عنهم الفرار من الزحف وتركوا رسول الله ﷺ في الميدان مع نفر قلائل من أصحابه، فقال عزّ وجل ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، وبعد ذلك يُمضي ما يراه الأصوب في ذلك ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، والآية واضحة تشير إلى الرفق بكلّ أبعاده، ليضع الأثر الذي يريده الله تعالى في درب التكامل البشري من خلال رسالته السامية.

أهمية الرفق واللين في حياة المسلمين

ويحظى الأمر باللين والرفق والرحمة في هذا الموضع بالذات بوقع خاص، يجلّي أهميّة هذه القيم على نحو قد يظهره موضع آخر؛ إذ جاء ذلك على أثر مخالفة المسلمين أمر رسول الله ﷺ يوم أحد، تلك المخالفة التي أدّت إلى أسوأ النتائج؛ إذ دهمهم العدو، فلم يجدوا في أنفسهم ثباتاً، فانقلبوا منهزمين يلوذون بالجبل، وتركوا النبي ﷺ مع نفر يسير من أصحابه حتى أثخنته الجراح وكُسرت رباعيته وشُجّ وجهه وهو صامد يدعوهم، فلم يفيئوا إليه حتى انكشف العدو، فلمّا رجعوا لم يعنّفهم ولم يُسمعهم كلمة ملامة، ولا ذكّرهم بأمره الذي خالفوه فتحمّلوا بخلافهم مسؤولية كلّ ما وقع، بل رحّب بهم وكأن شيئاً لم يكن، وكلّمهم برفق ولين، وما هذا

الرفـق والليـن إلا رحمة الله بنبيّه وعـون له على رباطة الجأش، وإذا مدح الله نبيه بكظـم الغيظ والرفق بأصحابه على إساءتهم لـه، فبالأولى أن يعفو الله ويصفح عن عبـاده المسيئين، ثم بيّن سبحانه الحكمة من لين جانـب نبيّه الكريم ﷺ بخطابه له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، وشمت العدو بك وطمع فيك ولم يتمّ أمرك وتنتشر رسالتك.

وأنّ المقصـود من بعثة الرسول ﷺ هداية الخلق إلى الحق، وهم لا يستمعون إلا إلى قلبٍ رحيمٍ كبيرٍ كقلب محمد ﷺ الذي وسع الناس، كلّ الناس، وما ضاق بجهل جاهل أو ضعف ضعيف[1].

الرفق في الروايات الشريفة

لقـد مُـدِح الرِّفق فـي الأخبار الـواردة عن النبـيِّ ﷺ وأهل بيتـه عليهم السلام بكثرةٍ، وتنوّعت الأحاديث في ذلك:

- فعن رسول الله ﷺ أَنَّه قال: «**الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالْخُرْقُ شُؤْمٌ**»[2].

فهـذا الحديث يصف الرفق باليمن، أي: البركة؛ لما للرفق من دور حيويّ في شدّ أُزُر النـاس بعضهم إلـى البعض الآخر من خلال ما يزرعه فـي نفوسهم من المحبة والصفـاء حتـى يعودوا مباركين فـي تصرفاتهم، فيعـمّ اليمن ساحتهـم وتتغشّاهم بركات السماء.

- وفي الخبر عن مولانا الباقر عليه السلام: «**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قُفْلاً وَقُفْلُ الْإِيمَانِ الرِّفْقُ**»[3]. والمراد: أَنَّ لكلِّ شيءٍ حافظاً له ومانعاً يردّ عنه ورود الفساد والخراب، وهذا من باب تشبيـه الأمر المعنـوي بالأمر المحسوس؛ لغرض تقريب الفكـرة إِلَى الأذهان. وكأن

(1) مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف 2: 188.
(2) الشيخ الكُلَيْني، الكافي، ج 2، ص 119.
(3) (م.ن)، ص118.

قفـل الإيمان هو الرّفق؛ مـن باب تشبيه الإيمان بالجوهـر، والقلب بخزانته، والرفق بالقفـل؛ لأنّه يحفظه عن الزوال وطروِّ الفساد؛ وذلك لِمَا للين الجانب والرأفة وترك العنـف والجفاوة فـي الأفعال والأقـوال على الخلق فـي جميع الأحـوال، سواء صدر منهـم بالنسبـة إلَى صاحـب الرّفق ما هو مخالفٌ لـلآداب أم لم يصـدر، من تأثير علـى معامـلات الناس مع بعضهم البعض، الأمر الَّذِي يُؤْمَـن معه من ورود المفاسد والآفات.

الله رفيق يحب الرفق

ويشهـد لذلك خبرٌ آخر عن مولانا الصادق عليه السلام، قَـالَ: «**إِنَّ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فَمِنْ رِفْقِهِ بِعِبَادِهِ تَسْلِيلُهُ أَضْغَانَهُمْ وَمُضَادَّتَهُمْ لِهَوَاهُمْ وَقُلُوبِهِمْ وَمِـنْ رِفْقِـهِ بِهِـمْ أَنَّـهُ يَدَعُهُمْ عَلَـى الْأَمْرِ يُرِيـدُ إِزَالَتَهُمْ عَنْـهُ رِفْقاً بِهِمْ لِكَيْـلَا يُلْقِيَ عَلَيْهِـمْ عُـرَى الْإِيمَانِ وَمُثَاقَلَتَـهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فَيَضْـعُفُوا فَإِذَا أَرَادَ ذَلِكَ نَسَـخَ الْأَمْرَ بِالْآخَـرِ فَصَـارَ مَنْسُـوخاً**»[1]. والتسليل إخراج الشيء برفق، تقـول: سللت السيف إذا أخرجتـه من غمده، والضغن الحقد والعداوة والبغضـاء، تقول: ضغن صدره ضغناً، أيّ: حقد، ولعل المراد بتسليلها إخراجها بالرفق والتدريج عن قلوبهم وتوفيقهم على دفعها باستعمال أسبابه وعدم تكليفهم به دفعة واحدة؛ لصعوبة ذلك[2].

ـ عـن مولانا الباقـر عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ عَـزَّ وَجَلَّ رَفِيـقٌ يُحِـبُّ الرِّفْـقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ**»[3].

وفـي هذا الحديث دلالةٌ على أن ملاك حسن الأخلاق وفضائل الملكات وجود مثلها أو ما يناسبها فى صفات الله تعالى، مثلاً: الله كريمٌ يحبّ الكرم، فالكرم من الملكات

(1) الشيخ الكُلَيْني، الكافي، ج28، ص118.
(2) انظـر: المولـى المازندراني، محمـد صالح، شرح أُصول الكافي 8: 325، تحقيق: أبـو الحسن الشعراني، الطبعة الأولى 1382هـ، نشر: المكتبة الإسلامية، طهران.
(3) الشيخ الكُلَيْني، الكافي، ج 2، ص119.

الفاضلــة، وحليــمٌ يحبّ الحلم، والجود حسنٌ لأنّ الله جــواد، والسخاء حسنة، وهكذا. وهذا معنى ما قيل: تخلقوا بأخلاق الله تعالى. وبالجملة الله هو الموجود الكامل الجامع لجميع الكمالات المنزّه من جميع النقائص، وتحصيل كلّ كمال تشبّه بالخالق تعالى.

ـ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»[1].

وهذا الحديث يحكي جمالية الرفق في أنّه لبوس حسن، يزيّن مرتديه، فمن تخلّق بالرفق فإنَّ الرفق سيزينه ويزيده جمالاً ووقاراً وهيبة، فلا يلتفت الآخرون إلى ما هو عليــه من عيوب ونقاط ضعف لا ينجو منها عــادة إلَّا الكُمّل من الناس، وعلى العكس مــن ذلك فلو أَنَّ إنساناً يستجمع من المزايا الحميدة الشيء الكثير غير أنّه لا يتخلّق بالرفق في تصرفاته، فإنَّ مثل هذا الإنسان سرعان ما ينفر الناس منه لما للرفق من دور مهمّ في الكشف عن الأخلاق العملية التي يتفاعل معها الآخرون.

ـ روى الشَّيْــخ الكلينــي قدس سره بسنــد صحيــح إِلَــى حمّاد بــن عثمان عــن أبي عبد الله عليه السلام، قَــالَ: قَــالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نِعْمَ وَزِيــرُ الْإِيمَانِ الْعِلْمُ وَنِعْــمَ وَزِيرُ الْعِلْمِ الْحِلْمُ وَنِعْمَ وَزِيرُ الْحِلْمِ الرِّفْقُ وَنِعْمَ وَزِيرُ الرِّفْقِ الصَّبْرُ**»[2].

الوزيــر هــو مَنْ يحمل الثقل عــن الأمير ويعينه فــي أموره، وأمّا كــون العلم وزيراً للإيمــان فظاهر؛ لأنّ العلم التفصيلي بالمعــارف الإلهيّة والمسائل الدّينيّة يقوّي نور الإيمان في القلب ويدبّر أمره ويحفظ جميع القوى والأركان عن الجور والطغيان وعن صدور ما ينافي استقراره وتمكّنه.

وأمّا كون الحلم ـ وهو كون النفس مطمئنّة بحيث لا يحرّكها الغضب بتوارد المكاره بسهولــة ولا تقــع في شغب عند مشاهدتهــا ـ وزيراً للإيمان؛فلأنّــه يعين العلم ضبط

(1) الشيخ الكُلَيْني، الكافي، ج2، ص119.
(2) (م. ن)، ج 1، ص48.

النفس، ولا ينفعها مجرّد العلم في ضبط الممالك الرّوحانيّة، كما أنَّ السلطان الظاهر لا ينفعه علمه بأحوال مصالح الرّعايا ومضارّهم إذا لم يكن له حلم، وكانت له نفس ظالمة آمرة له بارتكاب مضارّهم، أو وزير مائل إلى الظلم آمر له به وهو يتبعه في مفتريات أقاويله، فإنّ ذلك يؤدّي إلى فساد أحوال مملكته وزوال نظام أمور سلطنته.

وأمّا كون الرّفق وزيراً للحلم، فلأنّه يكشف عن واقعية الحلم، فلا يزول أمام أوّل امتحان واختبار، فللرفق مدخلٌ عظيمٌ في ثبات الحلم وبقاء نظامه.

وأمّا كون الصبر وزيراً للرفق، فلأنّ الصبر على المكاره والأمور الشاقّة على النفس سببٌ عظيمٌ ومعينٌ تامٌّ لبقاء الرفق وثباته، ولولا الصبر لزال الرّفق بورود أدنى المكاره والشدائد.

منظومة العلم والحلم والرفق

فقد استوزر الرسول الأكرم ﷺ العلم للإيمان، والحلم للعلم، والرفق للحلم، والصبر للرفق، وبهذه المنظومة المباركة بيّن لنا التماسك الحيوي بين الإيمان والعلم والأخلاق، فمن أراد الإيمان فعليه بالعلم، ومن أراد العلم الذي يفضي إلى الإيمان فعليه أن يتزيّن بالحلم الذي يجعل من العلم علماً هادفاً، لا العلم الذي يرافقه الغرور والعجب والتكبر، ومن أراد إيماناً يستند إلى العلم النافع والمستوزر بالحلم فما عليه إلا التخلّق بالرفق الكاشف عن واقعية الحلم وحقيقته.

الرفق الذي يتضمّن: السماحة واللطف والانفتاح والتواضع وتكليم الناس على قدر عقولهم، والتجاوز عن سيئاتهم والترفّع من متابعة هفواتهم، رفقاً يتجلّى فيه اللّين وتمحى من ساحته الغلظة، فلا خشونة عند التعامل، ولا جفوة بعد التخاصم، ولا طغيان عند البغي، هكذا يريدنا رسول الله ﷺ في أبعادنا العلمية والإيمانية والأخلاقية، وهكذا كان هو ﷺ مجسّداً لأخلاق القرآن، وسنّته العملية هي التعبير

الأدقّ لكلّ ذلك الخُلق النبوي العظيم، ولأجل هذه الحقيقة الناصعة والمحجّة البيضاء عرّفه الباري تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

قَالَ رَسُولُ اللّٰه ﷺ: «**مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ إِلَّا كَانَ أَعْظَمُهُمَا أَجْراً وَأَحَبُّهُمَا إِلَى اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ**»[2].

الصحبة في اللّٰه عمل ممدوح باركه الإسلام كثيراً وحثّ عليه وبشّر أهله بالثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة، لكن بين المتصاحبين في اللّٰه تفاضل، فأحدهما أرفع منزلة وأعظم أجراً من أخيه فبأي مزيّة نال هذا التفضيل؟

رسول اللّٰه ﷺ يكشف لنا عن سرّ هذه المفاضلة، وهي أنّها تحصل بالرفق. فالرفق هو الذي رفع أحد الصاحبين على أخيه درجة وشرّفه بمنزلةٍ من حب اللّٰه أعلى.

واعلم أنّ اللّٰه تعالى ليجازي عباده على مكارم الأخلاق في الدنيا فيريهم ثمراتها، كما يدّخر لهم ليوم لقائه ما هو أنمى وأبقى، فما الذي يراه المتحلّي بالرفق في دنياه؟ قال ﷺ: «**إِنَّ فِي الرِّفْقِ الزِّيَادَةَ وَالْبَرَكَةَ وَمَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ**»، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**أَيُّمَا أَهْلِ بَيْتٍ أُعْطُوا حَظَّهُمْ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ وَسَّعَ اللّٰه عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ وَالرِّفْقُ فِي تَقْدِيرِ الْمَعِيشَةِ خَيْرٌ مِنَ السَّعَةِ فِي الْمَالِ وَالرِّفْقُ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ شَيْءٌ وَالتَّبْذِيرُ لَا يَبْقَى مَعَهُ شَيْءٌ إِنَّ اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ**»[3].

الرفق في حقوق المؤمنين

ركّز الإسلام كثيراً عنايته بحقوق المؤمنين بعضهم على بعض، حفظاً لكرامة الإنسان المؤمن وصيانة للمجتمع ورصاً لصفوفه، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[4].

(1) سورة القلم، الآية: 4.
(2) الشيخ الكُلَيْني، الكافي، ج2، ص120.
(3) (م. ن)، ص119.
(4) سورة التوبة، الآية 71.

والرّفـق واحدٌ من تلـك الحقوق التي ينبغي حفظها، ورسالـة الحقوق التي أفاض بها الإمام زين العابدين عليه السلام أكمل دستور يتناول شِعَب الحقوق وجوانبها وألوانها، وفيهـا تجد للرفق حظّه المبرّز وهو يوزّعه على أولى الفئات التي ينبغي أن يحفظ لها حقها فيه، ومنها:

1 - المسلمـون عامة: قال عليه السلام: «**وَحَقُّ أَهْلِ مِلَّتِكَ إِضْـمَارُ السَّـلاَمَةِ وَالرَّحْمَةِ لَهُمْ وَالرِّفْقُ بِمُسِيئِهِمْ وَتَأَلُّفُهُمْ وَاسْتِصْلاَحُهُمْ وَشُكْرُ مُحْسِنِهِمْ وَكَفُّ الْأَذَى عَنْهُمْ**»[1].

ـ المستنصـح: وقال عليه السلام: «**حَـقُّ الْمُسْتَنْصِـحِ أَنْ تُـؤَدِّيَ إِلَيْـهِ النَّصِـيحَةَ وَلْيَكُنْ مَذْهَبُكَ الرَّحْمَةَ لَهُ وَالرِّفْقَ بِهِ**»[2].

2 - الزوجـة: قـال عليه السلام: «**وَأَمَّا حَـقُّ الزَّوْجَةِ فَأَنْ تَعْلَـمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَـلَّ جَعَلَهَا لَكَ سَـكَناً وَأُنْسـاً فَتَعْلَـمَ أَنَّ ذَلِـكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَـلَّ عَلَيْكَ فَتُكْرِمَهَـا وَتَرْفُقَ بِهَا وَإِنْ كَانَ حَقُّـكَ عَلَيْهَـا أَوْجَبَ فَـإِنَّ لَهَا عَلَيْكَ أَنْ تَرْحَمَهَا لِأَنَّهَا أَسِـيرُكَ وَتُطْعِمَهَا وَتَكْسُوَهَا وَإِذَا جَهِلَتْ عَفَوْتَ عَنْهَا**»[3].

ارفق يُرفق بك

لما كان اللّه تعالى رفيقٌ ويحبّ الرفق، فلا شكّ أنّه سبحانه سيقابل رفق الإنسان بأخيـه الإنسـان، ورفق الإنسان بالحيوان، بالرفق واللطـف والسماحة والتجاوز فيما يخصّ تعامـل الخالق مع مخلوقه فـي الدنيا أو ما يعود لمحاسبتـه في الأخرى. قال تعالـى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[4]، فعـن الإمام زيـن العابدين عليه السلام: «**كَانَ آخِرُ مَا أَوْصَـى بِهِ الْخَضِـرُ مُوسَـى** عليه السلام **قَالَ: ... وَالرِّفْقُ بِعِبَادِ اللهِ وَمَا رَفَقَ**

(1) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2:، ص 625.
(2) (م. ن)، ص 624.
(3) (م. ن)، ص 621.
(4) سورة الرحمن، الآية: 286.

أَحَدٌ بِأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَفَقَ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]، فمن أراد أن يرفق الله به فما عليه إلا أن يرفق بغيره.

الرفيق من يرفقك على صلاح دينك

عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«إِنَّمَا سُمِّيَ الرَّفِيقُ رَفِيقاً لِأَنَّهُ يُرْفِقُكَ عَلَى صَلَاحِ دِينِكَ، فَمَنْ أَعَانَكَ عَلَى صَلَاحِ دِينِكَ فَهُوَ الرَّفِيقُ الشَّفِيقُ»**[2]، فاختر لنفسك رفيقًا يرفق بك على صلاح دينك ويعينك على تكامل سبيلك.

نتائج عدم الرفق بالنفس

إنّ قصة البقرة في القرآن الكريم قصة طريفة تحكي سهولة التشريع الإلهي، وتشديد الإنسان على نفسه فيما يضعه من قيود وضوابط لم يكن مُلْزَمٌ بها من قِبَل ربّه. فبنو إسرائيل بعد أن ضيّقوا على أنفسهم ضيّق الله عليهم؛ إذ لم يطلب منهم إلّا ذبح بقرة نكرة غير معروفة بوصف معيّن، كما دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً**﴾[3]، إلا أنّهم مارسوا اللجاجة وماطلوا كثيراً في أداء التكليف، إذ لم تكن هناك إلّا بقرة واحدة تتمتع بتلك الأوصاف النادرة، ولم يعثروا عليها إلا بشقّ الأنفس، فلو رفقوا بأنفسهم لرفق الله بهم، ولكنّهم ضيّقوا على أنفسهم فضيّق الله عليهم.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: **«لَوْلَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ مَا أُعْطُوا أَبَداً، وَلَوْ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا بَقَرَةً مِنَ الْبَقَرِ فَذَبَحُوهَا لَأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ»**[4].

(1) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة، ج 16، ص 163.
(2) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم، ج 20، ص 273.
(3) سورة البقرة، الآية: 67.
(4) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص 204.

خاتمة المطاف

- إِنَّ نظريــة الإســلام فــي الأخــلاق الاجتماعية تقــوم على الرفــق والتسامح والتجاوز من غير ضعفٍ ولا مداهنة، بل من أجل الهداية للرشد والتكامل.
- إنّ القــرآن الكريم يعتبــر التخلّق باللين ومجانبة الفظاظــة والغلظة من أهمّ عوامل استقطاب الناس والتأثير في هدايتهم إلى درب الحق.
- إِنَّ القرآن الكريم يعتبر المتخلّقين بذلك هم أولي الحظ العظيم في السجايا الفاضلة ومن أهل الكرامة والنعيم الأبدي.
- إِنَّ الأحاديــث الشريفة تؤكّد أَنَّ اللّه رفيق ويحبّ الرفق في الأمر كلّه، وأَنّ اللّه تعالى يعين على الرفق.
- إِنَّ مــن الرفــق: الرّفق بالنفس وعدم تحميلها ما لا تطيق، وإِنَّ من يضيّق على نفسه يضيّق اللّه عليه.

اللهم أعنّا على أن نرفق بأنفسنا وبمن حولنا، ولا تحرمنا رفقك ولطفك يا أرحم الراحمين.

9

مَنْ ذا الَّذِي يُقرض اللّه

(القرض الحسن)

مفاهيم محورية:

- القرض الحسن وآثاره الاجتماعية.
- يقرِض الله تعالى.
- ما هو القرض الحسن؟
- فيضاعفه أضعافاً كثيرة.

نص الموعظة القرانية:

قال الله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[1].

تمهيد

يُحيط القرآن بكلّ ما يحتاج إليه الإنسان في حياته، ويُهيّء له سُبلَ الوصولِ إلى أهدافهِ مهمَا تعدّدت تلك الأهداف، ومهما كثرت الصّعاب الّتي تُعيق حركة الإنسان في طريقه.

فإذا أراد الإنسان أن يُحاور أخيه الإنسان يُريه الله تعالى طُرق التّحاور فيقول له: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾[2]، وإذا قرّر الإنسان القيام بعمل ما، فيقف القرآن مُنبّهاً له: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[3]، فالله يراقب أعمالنا، ويدعونا إلى العمل وفق القوانين الّتي يضعها لنا، وهكذا يحدّد لنا القرآن البوصلةَ الّتي تُنير لنَا درباً مُشَرَّعاً

---

(1) سورة البقرة، الآية: 245.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

(3) سورة التوبة، الآية: 105.

وواسعاً للوصول إلى الغايات المنشودة.

ويوطِّد القرآن عُرى الرّوابط الإنسانيّة بين النّاس، فيحُثّهم على التّعاون فيما بينهم حيث يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

القرض الحسن وآثاره الاجتماعية

القرآن الكريم دستورُ حياةٍ حقيقيّة، تَراه يُرصِّع لنَا مفاهيمَ مهمّة جداً لاستقامة حياة الإنسان، ومن هذه المفاهيم مفهوم (القرض الحسن).

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[3].

لنحاول معاً أن نَغْرفَ من ينبوع المعرفة، فنرى ما هو معنى القرض؟ ولماذا رَبط الله القرض بذاته المقدّسة؟ وما هو القرض الحسن؟ وكيف يُضاعف أضعافاً كثيرة؟ ولماذا يُضاعف بهذه الأضعاف؟

القرض في اللّغة: ما يَتجازَى به الناسُ فيما بينهم ويَتَقاضَوْنَه، وجمعه: قُرُوضٌ، وهو ما أَسْلَفَه من إحسانٍ، والقِرْضُ بالكسر، لغة فيه حكاها الكسّائيّ[4].

وفي الاصطلاح الفقهي عبارة عن: «**معروف أثبته الشارع إمتاعاً للمحتاجين مع ردّ عوضه في غير المجلس غالباً**»[5].

فالقرض فعل خيرٍ، يؤدّيه الإنسان مع أخيه، وهو من البلاء الحسن.

---

(1) سورة المائدة، الآية: 2.

(2) سورة البقرة، الآية: 245.

(3) سورة الحديد، الآية: 11.

(4) انظر: لسان العرب، مادة (قرض).

(5) الشهيد الأول، محمد بن مكي، الدروس الشرعية في فقه الإمامية، ج3، ص318، نشر: مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرسين، الطبعة الثانية 1417، قم.

والقرض يأتي بمعنى القطع؛ يعني يقطتع المقرِض من نفسه وماله ما يربطه بالمقترض.

أقسام القرض

وقد قُسّم القرض إلى قسمين:

1 - **قرض حاجة**: وهذا لا يُتصوَّر في حقّ اللّه تعالى، فهو الغنيّ المطلق غير المحتاج لأحدٍ، والكلّ محتاج إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[1].

2 - **قرض ربحٍ**: أي أنّ هذا المال المستَقرَض يرجع إلى المقرِض مع الرّبح الحلال، وهذا متصوّر في حقّه تعالى، وهو محور فكرة القرض الحسن، فيصرف المقرِض المالَ في المنافع العامّة، ومن ثمّ يعود النّفع إلى صاحبه، بشرط خضوعه للموازين الشّرعيّة.

والمعنى المراد في المقام: هو جميع ما يقدّمه الإنسان من أفعال خيّرة، ترجع منفعتها إلى النّفس أو المجتمع، وتعبيره تعالى بالقرض إنّما هو للتّنظير وتقريب الفكرة، وليس المراد القرض الاصطلاحيّ الّذي يُؤخذ لرفع الحاجة والعَوَز.

يُقرض الله تعالى

إنّما ارتبط القرض باللّه تعالى في هذه الآيات الكريمة للحثّ والتّشجيع والتّرغيب على البذل والإنفاق في سبيل النّفس الإنسانيّة والمجتمع.

وتَتبيّنُ هذه الفكرة في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2].

(1) سورة فاطر، الآية: 15.

(2) سورة المزمل، الآية: 20.

فهـذه الآية توضّـح لنا المراد من القرضـ الّذي يقدّمه الإنسان إلـى النّاس على صعيد الفرد والمجتمع.

والدّليل علـى هذا قوله تعالـى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، مـن جهـة كـون القرض تقدمـة لنفسـ المقرِض عبـر مساعدتـه للآخرين، فالمنفعة الحقيقيّة هي لصاحب القرض، وليس لمن طلب القرض والمساعدة!!

ولمَّـا كانت رغبة الإنسان في الإنفاق ضعيفة بشـكل عامّ؛ حثّ الله تعالى الإنسان على الإنفاق، ورَبَط القرض بذاته المقدّسة كتشجيع على فعل الخير، والبذل والعطاء لوجهه عزّ وجلّ.

ومن الأدلّة، ما في الخبر الصّحيح، عن فضيل بن يسار، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّـه قال: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ أَقْرَضَ مُؤْمِناً يَلْتَمِسُ بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلَّا حَسَبَ اللهُ لَهُ أَجْرَهُ بِحِسَابِ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ مَالُهُ**»[1].

فالمؤمن عندما يقرض الله تعالى، هو في حقيقة الأمر يقدّم لنفسه الخير والأجر الجزيـل الّذي يفوق كلّ أجرٍ آخر، فيعتبر القرضـ كالصّدقة من جهة رجوع الصّدقة إلى صاحبها مضاعفة، كذلك القرض يرجع إلى صاحبه أضعافاً كثيرة، وهو في بعض الرّوايات يتخطّى الصدقة بثمانية أضعاف، فالصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر!

ما هو القرض الحسن؟

كلّ قرضـ كان مُخلَصـاً لله تعالـى؛ أي: خالٍ عن الشوائب مـن الشرك، والرياء، والسّمعة، ومن المنّ والأذى، وفيه الخير والمنفعة العامّة العائدة على الصّالح العامّ، فهـو من القرض الحسن. من أجل ذلك علينا أن نتنبّـه إلى كمائن الشّيطان الّذي لا يتـرك فرصة إلّا وينتهزهَا ليُوقِعنا في شرك الرّيـاء والسّمعة، فنقدّم المال لأجل أن نُذكـر على المنابر، أو يقـال انظروا إلى فلان وفلان ما الّـذي قدّمه لبناء المسجد،

(1) الشيخ الكُلَيْني، الكافي، ج 4، ص 34.

وغير ذلك من الحبائل الّتي قد يَحيكها إبليس بطريقة يغفل الإنسان عنها!!

نعـم، في بعض الأحيان قد يكون من باب التّشجيع للآخريـن كي يقدّموا ويَبذلوا قروضـاً حسنة، فهذا شيءٌ ممـدوحٌ ومطلوب، ولكن لا بدّ من الاحتياط والالتفات إلى خـدع الشّيطان الّتي تَقتنص كلّ فرصة لتسقطنا في حفر المعاصي والذّنوب، فنكون من الّذين يظنّون أنّهم يحسنون صنعاً، وما لهم في الآخرة من نصيب، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

وفـي هذا السّيـاق تُروى في سبب نزول آية الإقراض حادثة جرت مع النّبي ﷺ وأحـد أصحابـه، وهو أبـو الدّحداح، وفيهـا من العبر مـا ينفعنا، فإليـك خلاصتها وعبرها:

«**لمـا نزل: «مَنْ ذَا الذي يقرض الله قرضـاً حسـناً»** قـال أبو الدحداح: فداك أبي وأمي يا رسول الله! إنَّ الله يستقرضنا وهو غنيٌّ عن القرض؟

قال ﷺ: نعم يريد أن يدخلكم الجنة به.

قال: فإنّي إنْ أقرضتُ ربّى قرضاً يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة؟

قال ﷺ: نعم.

قـال: فناولنـي يـدك، فناولـه رسـوله الله ﷺ يـده. فقـال: إنَّ لـي حديقتيـن إحداهما بالسـافلة والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضـاً لله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: اجعل إحداهما لله والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك.

قال: فأشـهدك يا رسـول الله أنّى قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط فيه ستمائة نخلة.

(1) سورة الكهف، الآيتان: 103 – 104.

قال: إذاً يجزيك الله به الجنة.

فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أمّ الدحداح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول:

هداكِ ربّي سبلَ الرشاد إلَى سبيل الخير والسداد
بيني من الحائط بالوداد فقد مضى قرضاً إلَى التناد
أقرضتُه اللهَ على اعتمادي بالطّوعِ لا منٌّ ولا ارتداد
إلَّا رجاء الضعف في المعاد فارتحلي بالنفسِ والأولاد
والبرُّ لا شكّ فخير زاد قدّمه المرء إلَى المعاد

قالت أمُّ الدحداح: رَبِحَ بيعك! بارك الله لك فيما اشتريت، ثم أجابته أمُّ الدحداح وأنشأت تقول:

بشّرك الله بخيرٍ وفرح مثلك أدّى ما لديه ونصح
قد متّع الله عيالي ومنح بالعجوةِ السوداء والزهو البلح
والعبد يسعى وله ما قد كدح طول الليالي وعليه ما اجترح

«ثمّ أقبلت أمُّ الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم، حتى أفضت إلى الحائط الآخر، فقال النبي ﷺ: كم من عذق[1] رداح ودار فياح (أي: واسع) لأبي الدحداح»[2].

(1) العذق (بفتح فسكون): النخلة. وبكسر فسكون: العرجون (الغصن) بما فيه من الشماريخ. ورداح: ثقيلة.
(2) القرطبي، محمَّد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ج 3، ص 238، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، نشر دار إحياء التُّراث العربي 1405، بيروت.

العبرة من القصّة

العِبر الّتي تستفاد من هذه الحادثة الحقيقيّة التي جرت بين يدي رسول اللّه ﷺ كثيرة نشير إِلَى أهمّها:

- الغِنى المطلق للّه تعالى، ومع ذلك يَستقرض اللّه من النّاس قروضاً حسنةً لمنفعتهم.
- جزاء القرض ليس مكسباً دنيويًّا بل هو جزاء أخرويّ؛ فالنّبيّ ﷺ يدعو المؤمنين للتعلّق بالآخرة من خلال أفعالنا في هذه الحياة الدّنيا.
- تأكيد رسول اللّه (الصّلاة) على أبي الدحداح بأن لا يتصدّق بكلّ ما لديه، فيبقي بستان له ولعياله، ويتصدّق بالآخر. وإن كان البستان الباقي هو صدقة أيضاً، ولكن صدقة يجريها على عياله، فالبذل على العيال صدقة، وبذلك لا يصير أبو الدّحداح عالةً على غيره؛ فالتّواكل على الغير وطلب المعونة من الغير مذمومٌ عند اللّه تعالى.
- الزّوجة المخلصة للّه تعالى تحثّ زوجها على فعل الخير وعلى الإقراض الحسن، ولا تصدّه عن أداء المعروف مع النّاس. وانظروا إِلَى المقام الَّذِي وصلته هذا المرأة، حيث إِنَّها بمجرّد ما سمعت من زوجها أَنَّه تصدّق بكلّ ما يملك بادلته الرضا والحثّ، وسارعت إِلَى أولادها أخذت تمر الصدقة من أفواههم، خلافاً لبعض نساء هذا العصر؛ حيث قد تبادر زوجها بالاعتراض والقطيعة.

فحريٌّ بنا جميعاً رجالاً ونساءاً أن نَعتبر من هذه الدّروس الّتي أعطانا إيّاها النّبي ﷺ، وأنْ نبذل ما لدينا في سبيل اللّه تعالى، ونكون من أهل القروض الحسنة.

فيضاعفه أضعافاً كثيرة

إنّ اللّه تعالى قد طلب منّا في أوّل هذه الآية الكريمة طلباً، فقال عزّ من قائل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، ثمّ جاء الجواب من قِبَلِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ

﴿لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾، أنْ يَـا عباديَ أجيبوني، فأعطيكم من العطاء المضاعف، ومن العطـاء الكثير، ما لا عين رأت، فما تقدِّمه من قرضٍ لأخيك المؤمن لا يضيع عندي، بل يعود عليك بمنافعَ ليس لها إحصاء.

وهنـا أشار بعض أهل اللّغة إلى الفرق بين الضّعـف والذي هو أداء المثل وزيادة، وبيـن قولـه تعالـى (أضعاف)؛ فـإنّ فيه تأكيـداً على معنـى الزيادة أكثـر من كلمة (يضعّف)؛ لأنّ معنى ضعّفت، أي: ضعفت مرّتين، بينما ضاعفت، يعني جعلته مرّتين فصاعدا.

وفـي الصحيح عن إسحاق بـن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**مَكْتُوبٌ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ الصَّدَقَةُ بِعَشَرَةٍ، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ**»[1]

فالقرض بثمانية عشر ضعف، والصّدقة أقلّ منه في الأجر والثّواب كما هو ظاهر الحديـث الشّريف، ومع ذلك لم يكتف الله تعالى بذلك، فعقَّب التّضعيف بالكثير، أي أضعافًا كثيرة!!

فجـزاء القرض الحسن أضعافاً كثيرة، وهذا الجزاء قد يختلف باختلاف مراتب الإخلاص فـي إعطـاء القروض الحسنـة، فتراة يكـون بعشرة كما فـي قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ ...﴾[2]، وتـارة أخرى يكون بسبعمائة، كما في قوله تعالـى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

هـذا هو بعض جزاء من يقرضـ الله قرضاً حسناً، فالله يُعطـي كلّ من يُنفق في سبيله الكثير الكثير، كمثل حبّة أنبَتت سبعَ سنابلَ، وكلّ سنبلة تُعطي مائة حبّة، وبعد ذلك يضاعف الله تعالى لمن يشاء من عباده أضعافًا كثيرة!!

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 33.
(2) سورة الأنعام، الآية: 160.
(3) سورة البقرة، الآية: 261.

يقبض ويبسط

بعد كلّ العطاء الّذي قرنه اللّه تعالى بذاته المقدّسة، وأنّ الّذي يقرض اللّه قرضاً حسنـاً يضاعفه له، علينا أن نبقى متيقّظين إلـى أنّ ما نبذله ونقدّمه لا يساوي شيئاً أمام كرم اللّه تعالى علينا، ولا يُمكن في لحظة ما أن يقوم الإنسان بالتّفكير فيما بينه وبين نفسه أنّه قد فعل الكثير، وأعطى ما لا يمكن أن يعطيَه غيره.

مـن هنا كان تنبيه اللّه تعالى لنا عندما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

لكي نضع في بَالِنا ـ وبشكل دائم ـ أنّنا مهما قدّمنا يبقى تقديمنا قليلاً جداً مقابل قـدرة اللّه القابضـ والباسط علينـا، من نعمة الخلـق، والصّحة والعافيـة، والأمن، والأمـان فـي كلّ شعـب حياتنا، فاللّه عزّ وجـلّ إذا أراد منعَ عنّا كلّ شـيء، وإذا أراد أعطانا كلّ شيء...

فيـا أيّها المؤمن! أقرضـ اللّه قرضاً حسناً يُضاعفه لـك أضعافًا كثيرة جدًا، ولا تغفل عن أنّ اللّه سبحانه هو المعطي الحقيقيّ، وهو المانع الحقيقيّ أيضاً، فإذا أراد أن يُضَيِّق علينا منع عنّا الهواء الّذي نتنفّسه.

هذا، وإليه المرجع والمصير، والمبدأ والمنتهى...

وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله المعصومين

10

الاستغناء سببٌ للطغيان

مفاهيم محورية:

- العناصر المؤثِّرة في الشخصية.
- أصالة فطرة الإنسان.
- لماذا يطغى الإنسان؟
- طغيان الإنسان وتكبّره.
- آثار الطغيان والتكبّر.

نصُّ الموعظة القرآنية:

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[1].

العناصر المؤثّرة في الشخصية

العادات والتقاليد والمذاهب والمدارس والتعليم والأفكار والآراء المتلاطمة والمتعارضة والبيئة والمجتمع والبلاد والأهواء والوراثة و...

كلّ هذه الأمور والمفردات والعناصر تشكّل مجموعة من العوامل التي تتسلّل تدريجاً إلى نفس الإنسان، فتؤثّر فيها، ويبلغ تأثيرها في نفسه حدّاً بالغاً، إلى درجة أنّها تكوّن طبعاً ثانوياً يستطيع في كثيرٍ من الأحيان أن يغلب على شخصيّته الحقيقيّة وعلى طبعه الأوّليّ الكامن في ذاته في أصل الخلقة والتكوين، والمسمّى ـ هذا الطبع الأوّليّ ـ «**فطرةً**».

فالشخصيّة النهائيّة التي يستقرّ عليها الإنسان لا تكون وليدة فطرته فحسب، وإنّما هي نتاج الفطرة منضمّاً إليها مجموعة تلك العوامل، والتي قد تكون متناقضةً فيما بينها على مستوى النتائج والتأثيرات، فضلاً عن أنّها قد تكون مناقضةً لأحكام

(1) سورة العلق، الآيات: 6 – 8.

الفطـرة نفسهـا. الأمـر الذي يجعـل من الإنسـان كائناً غامضـاً مليئـاً بالتعقيدات والتناقضات.

ولكن مع ذلك، فإنّ هذا الطبع الثانويّ الذي يتشكّل في حياة الإنسان يبقى ثانويّاً؛ أي إنّـه لا يخـرج عن كونـه طبعاً طارئاً، وليس هـو الأساس العميق الـذي تقوم عليه الشخصيّـة الإنسانيّـة، ولا هو الحالـة الأصيلة التي يصعب أو يتعـذّر زوالها، بل هي حالة قابلة للتبدّل والتعديل والإصلاح والمعالجة والتغيير والتطوير.

أصالة فطرة الإنسان

وتبقى الأصالة للفطرة وللطبع الأوّلي، هو الذي يمكن البناء والتأسيس عليه، وهو المرجع الذي إليـه تؤول النفس عندما تحتدم لديها التناقضات الطارئة التي تقذف بهـا إلى أتون الحيرة والشكّ والاضطراب والتوتّر والانزعـاج والضيق النفسيّ، فإذا ما عادت النفس إلى صفاء فطرتها ـ التي هي مستقيمة دائماً، وعلى حقٍّ دائماً ـ ورثت يقيناً، وعاد إليها توازنها وهدوؤها وسكينتها واطمئنانها.

فالفطـرة وأحكامها هـي الثابت الوحيد فـي شخصيّة الإنسـان، بالرغم من أنّه يعيش في هذا العالـم المليء بالمتغيّرات والتناقضات والقـوى الضاغطة والمؤثّرة. الفطـرة هي العنصر المتين الـذي لا يمكن اختراقه، والحصن الذي لا يمكن النفوذ إليـه لتخريبه من الداخل، والقطـار الذي يسير نحو وجهته الحتميّـة دون أن يتمكّن شـيء مـن تعطيله أو حرف مسـاره عنهـا، أو إخراجه عن سكّتـه المرسومة له. قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[1].

وفـي هـذا المجال يقول الإمـام الخميني قدس سره: «**لا بـدّ أن نعرف بـأنّ ما هو من أحـكام الفطـرة لا يمكـن أن يختلـف فيه اثنان، مـن ناحية أنّها من لـوازم الوجود، وقـد تخمّـرت فـي أصـل الطبيعة والخلقـة. فالجميـع، مـن الجاهـل والمتوحّش**

(1) سورة الروم، الآية: 30.

والمتحضّر والمدنيّ والبدويّ، مجمعون على ذلك. وليس ثمّة منفذ للعادات والمذاهب والطرق المختلفة للتسلّل إليها والإخلال بها. إنّ اختلاف البلاد والأهواء والمأنوسات والآراء والعادات التي توجب وتسبّب الخلاف والاختلاف في كلّ شيء، حتّى في الأحكام العقليّة، ليس لها مثل هذا التأثير أبداً في الأمور الفطريّة»[1].

ولأنّ الفطرة كذلك، فهي الضمانة الدائمة لعودة الإنسان إلى رشده وصوابه، كلّما حاد عن سواء السبيل. والفطرة وإن لم يكن بالإمكان تبديلها وتغييرها، لكنّ الإنسان قد يحيد عنها، قد يتجاهل أحكامها، ومقتضياتها، انطلاقاً من أنّها ترتّب عليه مسؤوليّات لا تتلاءم وشهواته التي تبعث فيه رغبةً عارمةً في التفلّت من كلّ القيود التي يرى فيها حدّاً لسعادته، أو إنهاءً لها، حتّى لو كانت تلك القيود لصالحه، وحتّى لو كانت تلك السعادة وهميّة.

وهنا تحديداً تبرز واحدة من أخطر نقاط الضعف الإنسانيّ، والتي تتمثّل في سرعة وسهولة استسلام الإنسان لأوهامه، تلك الأوهام التي تؤجّجها وسوسات الشيطان وتلبيساته، وتسويلات نفسه الأمّارة بالسوء، والتي تجد مرعىً خصيباً لها لدى كلّ إنسان استسلم لهواه، وغفل عن ربّه ومولاه، وغيّب عقله، وعطّله، وأغمض عيون بصيرته، لصالح دنيا فانية زائلة مليئةٍ بالمنغّصات والمكدّرات. كما قال عزّ من قائل: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾[3].

(1) روح الله الموسويّ، الإمام الخميني، الأربعون حديثاً: ص 222 ـ 223.
(2) سورة الجاثية، الآية: 23.
(3) سورة ص، الآية: 26.

لماذا يطغى الإنسان؟

وهنا نعود إلى الآيات الكريمة التي افتتحنا بها كلامنا، والتي هي موضوع هذا البحث، وهي الآيات: 6. 7. 8. من سورة العلق: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

مفردات في الآيات:

وقبل أن نرد إلى أجواء هذه الفقرة من الآيات الكريمة ثمّة مفردات ثلاثة بحاجةٍ إلى أن نسلّط الضوء عليها، وهي: «**الإنسان**»، «**الطغيان**»، «**استغنى**».

١. **الإنسان:** الظاهر ـ كما ذكره المفسّرون ـ أنّ «**أل**» الداخلة على الكلمة هنا هي «**أل**» التي للجنس والحقيقة، والتي يُقصَد منها الإشارة إلى أنّ الحكم المذكور في خطاب المتكلّم ثابت لنوع وحقيقة ما تدخل عليه، وليس حكماً على الأفراد جميعاً، ولا على فردٍ بعينه. ففي الآية، الحكم، وهو (الطغيان) ثابت للذات وللنوع الإنسانيّ عموماً، لا لإنسانٍ معيّن، من دون أن يقتضي ذلك ثبوت الطغيان لجميع بني البشر. فالمقصود أنّ من نقاط الضعف التي قد يُبتلى بها الإنسان بفعلٍ من طبيعته الإنسانيّة الكامنة فيه: أنّه يطغى أن رآه استغنى.

٢. **الطغيان:** مصدر لـ طغى يطغى، وهو ـ على ما ذكره أرباب المعاجم ـ إمّا تجاوز الحدّ المقبول مطلقاً، والاعتداء في حدود الأشياء ومقاديرها، فيكون له معنىً عامّ شامل لكلّ تجاوز وخروج عن الاعتدال، ويكون الظلم والتعدّي على حقوق الناس واحداً من مصاديق هذا المعنى العامّ، لا أنّه نفس مفهومه ومدلوله اللّغويّ، وإمّا بمعنى تجاوز الحدّ في العصيان خاصّةً، وهو الظلم، فيكون لفظ «**الظلم**» مرادفاً للفظ «**الطغيان**»، إلّا أن يُلتزم بأنّ الطغيان هو المبالغة في الظلم والاعتداء، فلا ترادف حينئذٍ، بل محض التقارب.

٣. **استغنى:** هو استفعال من «**الغنى**»، والاستفعال ـ كما ذُكر في محلّه ـ يأتي على

معانٍ، لعلّ الأنسب منها في المقام معنيان:

أ. الصيرورة، فـ «**استغنى**» بمعنى: صار غنيّاً.

ب. الحدث المجرّد، فـ «**استغنى**» بمعنى: غَنِيَ. فيكون الفعل قد ورد بلفظ المزيد فيه، لكنّه بنفس معنى الفعل المجرّد.

والمؤدّى لكلا المعنيين واحد، وإن كان الأرجح هو الثاني؛ لأنّهم مثّلوا للصيرورة بمثل: «**استحجر الطين**»؛ أي صار حجراً أو كالحجر في صلابته، و«**استأسد الجنديّ**» أي صار كالأسد في شجاعته وقوّته، ونحو ذلك من الأمثلة التي فيها استحالة الشيء عن حقيقته إلى حقيقةٍ أُخرى، ومن هنا عُبّر عن هذا المعنى في بعض الكتب بـ «**الصيرورة الحقيقيّة**».

طغيان الإنسان وتكبّره

تتحدّث الآيات عن واحدةٍ من نقاط الضعف الإنسانيّ، وهي تفيد أنّ النوع الإنسانيّ عموماً يطغى، فيتكبّر ويعصي ويذهب بعيداً متجاوزاً الحدود التي لا ينبغي له أن يتجاوزها كإنسانٍ، وعندما تشتعل جذوة التكبّر الخبيثة في نفسه يبدأ ـ تدريجاً ـ بتخطّي تلك الحدود التي تبقيه إنساناً، ويخترقها واحداً تلو الآخر، حتّى لا يبقى حدٌّ يحجزه عن ارتكاب ما لا ينبغي له ارتكابه من الحرمات والقبائح. وهكذا هي عادة الشيطان الرجيم في استنزاف طاقة الإنسان وكرامته، وفي استدراجه خطوةً بعد خطوة نحو مزالق المهالك، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[1] ، وكيف لا؟! والشيطان اللّعين هو صاحب الباع الطويل في ارتكاب معصية الطغيان والتجبّر والتكبّر، بل هو من استحدثها وسنّ سنّتها وشيّد أركانها عندما قال ردّا على أمره

(1) سورة النور، الآية: 21.

مـن قِبل الله بالسجـود لآدم عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1]، وقـال أيضـاً: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[2]. وبسبب إصراره عليها افتتح مسيرة الضلال والإضلال التي كانت هي المسؤولة عن كلّ شقاءٍ ابتُلِي به مخلوق منذ ابتداء عالم الخليقة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3].

فكفـر إبليـس اللّعين بربّـه، وإخراجه مـن الجنّة، وطـرده عن الرحمـة الإلهيّة، واستحقاقـه اللّعنـة والخلود في العذاب الأليـم، لم يكن إلا بتكبّـره وعناده وإعجابه بنفسه. وليس هذا فحسب، بل هل كَفَر من كَفَر وطَغَى من طَغَى إلّا بتكبّرهم على الله تعالى وإعجابهم بما هم عليه من نعمة وصحّة؟!

إنّ التكبّـر والاستعـلاء والطغيان كان هـو المرض الخطير الحاضـر بقوّةٍ في كلّ مواجهـةٍ بين أهل الحـقّ وأهل الباطل، وكان هو أكبر وأخطـر تهديدٍ يواجهه الأنبياء والرسل في مسيرة إبلاغ رسالات الله، وقيادتها الإنسانيّة نحو برّ أمانها. كما نلاحظ هذا التأكيد في قصّة موسى عليه السلام مع فرعون، والذي تصفه آيات عديدة بأنّه «**طغى**»، أو بأنّه «**علا في الأرض**»، قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[4]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[5]. وكذلـك قصّته مع قارون ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ

(1) سورة ص، الآية: 76.
(2) سورة الحجر، الآية: 33.
(3) سورة الأعراف، الآيات: 11 – 16.
(4) سورة طه، الآية: 24.
(5) سورة القصص، الآية: 4.

فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[1].

ويقصّ علينا القرآن في سور عديدة من أنباء الأمم التي خَلَتْ ما يؤكّد هذه الحقيقة، ويفيد الإطلاق في هذا الحكم الذي يجعل الاستغناء سبباً للطغيان، حيث إنّ المستغنين الذين دفعهم الاستغناء إلى حياة الترف كانوا هم طلائع الجحود وأئمّة الكفر؛ ولذلك وجدناهم قادة المعارضة للدعوات الدينيّة والمحاولات التي قادها الرسل والأنبياء عليهم السلام، ففي مواجهة نبيّ الله شعيب عليه السلام وقف المترفون ينكرون التوحيد ويتمسّكون بعبادة ما كان آباؤهم، ويستندون في معارضتهم المجحفة تلك إلى ما زعموه وأملته عليه أوهامهم من أنّ لهم الحرّيّة المطلقة في التصرّف بما جمعوا من أموال دونما رقيبٍ ولا حسيب. قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[2]، وقال في موضع آخر متحدّثاً عن هذه الظاهرة عموماً: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[3].

آثار الطغيان والتكبّر

هذا المرض الاجتماعيّ، وهذه الخصلة الذميمة التي تفسد المجتمع الإنسانيّ عامّةً، وتورث الحرمان الإلهيّ، وتجلب الشقاء النفسيّ، له أسباب عديدة، لكنّ أسبابه في الجملة ترجع إلى شعور المتكبّر المغرور بالاستعلاء الذاتيّ على أقرانه، والرغبة في الامتياز على الآخرين، والانتفاخ، والتعالي عليهم، أو ما عبّرت عنه الآيات من سورة العلق بـ «**الاستغناء**»: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾، فالإنسان يطغى ويكفر بأنعم الله عليه، إذا رأى نفسه مستغنياً؛ أي إذا عدّ نفسه غنيّاً حائزاً على كلّ مقوّمات الغنى

(1) سورة القصص، الآية: 76.
(2) سورة هود، الآية: 87.
(3) سورة سبأ، الآيتان: 34 – 35.

والقـوّة وأدواتهما، من مالٍ وعلمٍ وقوّةٍ وخبرةٍ وأعوانٍ وأولاد وأراضٍ وعمارات وشركات و... (ولا وجه للاقتصار هنا على خصوص الغنى بالمال والثروة). وعندما يرى نفسه كذلك، عندما يسمح لهذه الرؤية أن تسيطر على تفكيره، فهذا يعني أنّه غلّب الوهم على العقل، وسمح لهواه أن يسيطر على رشده وصوابه، وعندما يعيش هذه الحالة، يقوده وهمه هذا إلى الخروج عن اعتداله، وعن طبيعته الأوّليّة كإنسان، وعن فطرته التي فطره الله عليها، فيغشى على بصيرته، وتعمى عليه الحقائق، وينسى أنّه فقير في حقيقة ذاته، لا يبارح الافتقار والاحتياج في حالٍ من أحواله، ولئن لم يكن في وقتٍ من الأوقات بحاجةٍ إلـى المـال والرخاء فهو في حاجةٍ إلـى الصحّة والعافية، ولئن لـم يكن في حاجةٍ إلى الصحّة والعافية فهو في حاجةٍ إلى الأمن وراحة البال، وهكذا... وهي كلّها أمور يقدّرها الله عزّ وجلّ، ومفاتيحها بيده وحده، كما ينسى أيضاً أنّ كلّ ما يملكه فهو من عند الله، وأنّ الذي أعطاه فأغناه هو الله، كما أنه هو الذي خلقه وأكرمه وعلّمه، وأنّ كلّ ما عنده فمـا هو سوى أمانات مآلها ومرجعهـا إلى الله سبحانه، الذي بيده أن يكثّرها وينميها، وبيـده أيضـاً أن يسلبها إيّاه متى شاء، دون أن يكون ذلك أمراً عسيراً عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾[1].

وفي الخبر عن مولانا الباقر عليه السلام ما يفيد معنى الآية: «**إِذَا شَبِعَ الْبَطْنُ طَغَى**».

ولـو ذكر هذا الإنسان المسكين أنّه وجميـع ما يملكه الآن عائد إلى ربّه ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾، لـو ذكّر قلبه وعقله بشكلٍ متكرّر بهـذه الحقيقة التي هي ماثلة أمامه، لكفى ذلك واعظاً له، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**كفى بالموت واعظاً**»[2].

والحمد لله أوّلاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

(1) سورة فاطر، الآيات: 15 – 17.

(2) العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 86، ص 325.

11

المهدوية أمل الإنسانية

مفاهيم محورية:

- الإيمان بالمنقذ في الديانات السماوية.
- حتمية ظهور المصلح في المدارس الفكرية.
- عقيدة الإمامية بالمهدي عجل الله فرجه الشريف.
- آداب العلاقة بالإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

نص الموعظة القرآنية:

روي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**والله ما تركَ اللهُ أرضاً منذ قبض آدم عليه السلام إلا وفيها إمام يهتدى بهِ إلى الله وهو حجّته على عباده، ولا تبقى الأرضُ بغيرِ إمام حجّة لله على عباده**»، وعنه أيضاً قال: «**لو أنَّ الإمام رُفِع من الأرضِ ساعة لماجت بأهلِها، كما يموُج البحرُ بأهلِه**»[1].

تمهيد

إنّ ظهـور الإيمان بفكرة حتمية ظهور المنقذ العالمي فـي الفكر الإنساني عموماً يكشـف عن وجـود أسس متينة قوية تستند إليها تنطلق مـن الفطرة الإنسانية. يقول الشهيـد السيـد محمـد باقر الصـدر قدس سره: «**ليس المهـدي عجل الله فرجه تجسـيداً لعقيدة إسـلامية ذات طابـع دينـي فحسـب، بـل هو عنـوانٌ لطموح اتجهـت إليه البشـرية بمختلـف أديانها ومذاهبها، وصـياغة لإلهام فطـري أدرك الناس من خلاله. على تنـوع عقائدهـم ووسـائلهم إلـى الغيب. أن للإنسـانية يومـاً موعوداً علـى الأرض تحقّـق فيه رسـالات السـماء مغزاها الكبير وهدفهـا النهائي، وتجد فيه المسـيرة المكدودة للإنسان على مرِّ التأريخ استقرارها وطمأنينتها بعد عناء طويل....**»[2].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 179.

(2) الصدر، السيد محمد باقر، بحث حول المهدي عجل الله فرجه، ص 7 – 8.

حتمية الإيمان بالمنقذ في الديانات السماوية

يعتبر الإيمان بحتمية ظهور المصلح الديني العالمي وإقامة الدولة الإلهية العادلة في كل الأرض من نقاط الاشتراك البارزة بين جميع الأديان[1]، والاختلاف فيما بينها إنّما هو في تحديد هوية هذا المصلح الديني العالمي الذي يحقّق جميع أهداف الأنبياء عليهم السلام.

والملاحظ أنّ هذه العقيدة تمثّل أصلاً مشتركاً في دعوات الأنبياء عليهم السلام، حيث إنّ كل دعوة نبوية - وعلى الأقل الدعوات الرئيسة والكبرى - تُمثّل خطوة على طريق التمهيد لظهور المصلح الديني العالمي الذي يحقّق أهداف هذه الدعوات كافة[2].

1 - **اليهود**: الإيمان بفكرة ظهور المصلح ثابت عند اليهود مدوّن في التوراة والمصادر الدينية المعتبرة عندهم. وقد فصّل الحديث عن هذه العقيدة عند اليهود كثير من الباحثين المعاصرين خاصةً في العالم الغربي مثل جورج رذرفورد في كتابه: «**ملايين من الذين هم أحياء اليوم لن يموتوا أبداً**»، والسناتور الأميركي بول منزلي في كتابه: «**من يجرؤ على الكلام**»، وغيرهما كثير[3].

وبغض النظر عن مناقشة صحة ما ورد من تفصيلات في هذه العقيدة عند اليهود، إلاّ أن المقدار الثابت هو أنها فكرة متأصّلة في تراثهم الديني وبقوة بالغة مكّنت اليهودية - من خلال تحريف تفصيلاتها ومصاديقها - أن تقيم على أساسها تحركاً استراتيجياً طويل المدى وطويل النفس، استقطبت له الطاقات اليهودية المتباينة الأفكار والاتجاهات، ونجحت في تجميع جهودها وتحريكها باتجاه تحقيق ما صوّره قادة اليهودية لأتباعهم على أنّه مصداق التمهيد لظهور المنقذ الموعود.

(1) زين الدين، الشيخ محمد أمين، حديث المهدي والمهدوية، ص 13.
(2) الصدر، الشهيد محمد صادق، تأريخ الغيبة الكبرى 251 وما بعدها.
(3) احمد الواسطي، أهل البيت في الكتاب المقدّس، ص 121 – 123.

2 - **النصارى**: كما آمن النصارى بأصل هذه الفكرة استناداً إلى مجموعة من الآيات والبشارات الموجودة في الإنجيل والتوراة. ويصرِّح علماء الإنجيل بالإيمان بحتمية عودة عيسى المسيح في آخر الزمان ليقود البشرية في ثورة عالمية كبرى يعم بعدها الأمن والسلام كل الأرض كما يقول القس الألماني فندر في كتابه «**ميزان الحق**»[1]، وأنه يلجأ إلى القوة والسيف لإقامة الدولة العالمية العادلة. وهذا هو الاعتقاد السائد لدى مختلف فرق النصارى.

حتمية ظهور المصلح في المدارس الفكرية

الملاحظ أن الإيمان بحتمية ظهور المصلح العالمي ودولته العادلة لا يختص بالأديان السماوية بل يشمل المدارس الفكرية والفلسفية غير الدينية أيضاً. فنجد في التراث الفكري الإنساني الكثير من التصريحات بهذه الحتمية، فمثلاً يقول المفكر البريطاني برتراند رسل: «**إن العالم في انتظار مصلح يُوحّده تحت لواء واحد وشعار واحد**»[2] ويقول ألبرت اينشتاين صاحب النظرية النسبية: «**إن اليوم الذي يسود العالمَ كله فيه السلام والصفاء ويكونُ الناس متحابين متآخين ليس ببعيد**»[3].

وتحدّث المفكّر الايرلندي المشهور برنارد شو، بصراحة، بحتمية ظهور المصلح وبلزوم أن يكون عمره طويلاً يسبق ظهوره، ويرى ذلك ضرورياً لإقامة الدولة الموعودة، في وصف المصلح بأنه: «**إنسانٌ حيٌّ ذو بنية جسدية صحيحة وطاقة عقلية خارقة، إنسانٌ أعلى يترقى إليه هذا الإنسان الأدنى بعد جهد طويل، وأنه يطول عمُرهُ حتى ينيف على ثلاثمائة سنة ويستطيع أن ينتفع بما استجمعه من أطوار العصور وما استجمعه من أطوار حياته الطويلة**»[4].

---

(1) بشارت عهدين، ص 261، نقلاً عن كتاب ميزان الحق للقس الألماني فندر، ص 271.
(2) الشهرستاني، السيد عبد الرضا، المهدي الموعود ودفع الشبهات عنه، ص 6.
(3) (م. ن)، ص 7.
(4) آل ياسين، الشيخ محمد حسن، المهدي المنتظر بين التصوّر والتصديق، ص 81.

عقيدة الإمامية بالمهدي عجل الله فرجه الشريف

يعتقد المسلمون بأن قضية المهدوية والإمام المهدي ضرورة من ضروريات الإسلام على مستوى كون إمامته امتداداً لنبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيادة البشرية، وعالمية دولته، وكونه الإمام المفروض الطاعة، وذلك على قاعدة أنّ الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، ووظائفها مستمدّة من النبوّة، لناحية قيادة المجتمع وإدارة شؤون الأمة والدولة، ومرجعية دينية، وولاية أمر عامة للمسلمين كافة. وإن ما يعزّز عقيدة المسلمين بالمهدي مجموعة الأخبار التي أكّدت أن الأرض لا تخلو من حجة لله على الأرض.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن علياً إمام أمتي من بعدي، ومن وُلده القائم المنتظر الذي إذا ظهر يملأ الأرض عدلاً وقسطاً**»[1].

وذكر الشيخ الكليني في الكافي ثلاث عشرة رواية تتحدّث عن أن الأرض لا تخلو من حجة، عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الله أجلُّ وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل**»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدم عليه السلام إلا وفيها إمام يهتدى به إلى الله وهو حجّته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده**»، وعنه أيضاً قال: «**لو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها، كما يموج البحر بأهله**»[3].

وقد حدّدت الروايات المقصود بالحجّة وأنه الإمام المهدي، فعن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «**إن الحجّة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حتى يعرف**» وورد روايتان بنفس المضمون عن الإمامين الصادق والرضا عليهما السلام، وعن الإمام الصادق عليه السلام

(1) السيد المرعشي، شرح إحقاق الحق، ج 29، ص 238.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 178.
(3) (م. ن)، ص 179.

قال: «**لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الإمام**»[1] وقال: «**إن آخر من يموت الإمام لئلا يحتجّ أحدٌ على الله عزّ وجل أنه تركه بغير حجّة لله عليه**»[2]. وتؤكّد الأخبار على أن انتظار الفرج أفضل العبادة، وهو في توأمة مع الجهاد، فقد سأل شخص الإمام الصادق عليه السلام: ماذا تقول فيمن مات وهو على ولاية الأئمة بانتظار ظهور حكومة الحق؟

فقال عليه السلام: هو بمنزلة من كان مع القائم في فسطاطه - ثم سكت هنيئة- ثم قال: هو كمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونقل هذا المضمون في روايات كثيرة منها: أنّه بمنزلة المجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّه بمنزلة من استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّه بمنزلة من كان قاعداً تحت لواء القائم عجل الله فرجه الشريف[3].

آداب العلاقة بالإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

بالإضافة للواجبات الإسلامية العامة التي تقع على المكلّفين من المسلمين في جميع العصور والأزمنة كواجب الدعوة الإسلامية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد وغير ذلك من الواجبات الشرعية، هناك واجبات وآداب عديدة تختصّ بعصر الغيبة لا بد من مراعاتها في علاقتنا بالإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف.

1 - معرفة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف:

عن رسول الله: «**من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية**»[4]. يستفاد من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ لمعرفة الإمام أهمية عظيمة وأنها أساس لمعرفة الله، وأنّ طريق الهداية للحق والثبات على الصراط المستقيم لا يتم إلا

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1،ص 180.
(2) (م. ن)، ص 180.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار،ج52، ص125.
(4) غيبة النعماني، ص 130، الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 21.

بمعرفة الإمام المعصـوم واقتفاء أثره والسير على خطاه والاستضاءة بنوره والثبات علـى ولايتـه. فعن الإمام الباقر عليه السلام قـال: «**إنّما يعرف الله عز وجل ويعبده من عـرف الله وعـرف إمامـه منـا أهـل البيت، ومـن لا يعـرف الله عز وجـل ولا يعرف الإمام منا أهل البيت فإنّما يعرف ويعبد غير الله هكذا والله ضـلالاً.!**»[1]. وما دام لمعرفـة الإمـام كل هذه الأهمية الكبـرى فليس المراد منها هو معرفـة اسمه ونسبه فقـط...! بـل يتحتم أن يكـون المقصود بالمعرفـة شيئاً آخر أكبـر وهذا ما يجيب عنـه الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «.. **وأدنى معرفـة الإمام أنّه عدل النبي إلا درجة النبوة ووارثه، وأنّ طاعته طاعة الله وطاعة رسـول الله والتسـليم له في كل أمـر والـرد إليـه والأخذ بقولـه، ويعلم أنّ الإمـام بعد رسـول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالـب ثم الحسـن ثم الحسـين ثم علي بن الحسـين ثم محمد بن علـي ثم أنا ثم مـن بعدي موسـى ابني ثم من بعده ولده علي وبعد علـي محمد ابنه وبعد محمد علـي ابنـه وبعـد علي الحسـن ابنه والحجة من ولد الحسـن**»[2]. وعـن الفضيل بن يسـار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ ﴾[3]. فقال: «**يا فضيل اعرف إمامك فإنّك إذا عرفت إمامك لم يضرك تقدّم هذا الأمر أو تأخّر، ومن عرف إمامه ثم مات قبل أن يقوم صاحب هذا الأمر كان بمنزلة من كان قاعداً في عسكره.. لا بل بمنزلة من قعد تحت لوائه**»[4].

2 - الثبات على الدين والولاية لأهل البيت عليهم السلام :

مـن أهـم تكاليفنـا الشرعيـة فـي عصـر الغيبـة هـو الثبات علـى مـوالاة أهل البيت عليهم السلام والثبات على العقيـدة الصحيحة بإمامة الأئمة الاثني عشر وخصوصاً

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 181، ح 4.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 120.
(3) سورة الإسراء، الآية:71.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 371، غيبة النعماني، ص 329، غيبة الطوسي، ص 276.

خاتمهم وقائمهم المهدي محمد بن الحسن عليه السلام. كما يتوجّب علينا عدم التأثّر بموجات التشكيك وتأثيرات المنحرفين مهما طال زمان الغيبة أو كثرت ضروب المشكّكين. فعن رسول الله قال: «**والذي بعثني بالحق بشيراً ليغيبنَّ القائم من ولدي بعهد معهود إليه مني حتى يقول أكثر الناس ما لله في آل محمد حاجة ويشك آخرون في ولادته، فمن أدرك زمانه فليتمسّك بدينه ولا يجعل للشيطان إليه سبيلاً يشكّكه فيزيله عن ملّتي ويخرجه من ديني**»[1]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**للقائم منا غيبة أمدها طويل، كأنّي بالشيعة يجولون جولان النعم في غيبته يطلبون المرعى فلا يجدونه، ألا فمن ثبت منهم على دينه ولم يقسُ قلبه لطول أمد غيبة إمامه فهو معي في درجتي يوم القيامة**»[2].

3 - ذكر فضائل الحجة عجل الله فرجه وموالاته في غيبته:

من جملة مصاديق الثبات على الولاية ذكر فضائل الإمام المهدي عجل الله فرجه وإشاعتها بين الناس والبراءة من أعدائه. كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**طوبى لمن أدرك قائم أهل بيتي وهو يأتّم به في غيبته قبل قيامه ويتولّى أولياءه ويعادي أعداءه، ذلك من رفقائي وذوي مودّتي وأكرم أمتي علي يوم القيامة**»[3]. ولقد جاء في الروايات الحث على تجديد العهد والبيعة مع الإمام المهدي عجل الله فرجه في كل يوم كما جاء في دعاء العهد الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اللهم إنّي أُجدّد له في صبيحة يومي هذا وما عشت من أيامي عهداً وعقداً وبيعةً له في عنقي لا أحول عنها ولا أزول أبداً ...**»[4].

(1) الشيخ الصدوق، كمال الدين، ج 1، ص 51، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 51، ص 68، ح 10.
(2) (م. ن)، ص 303، ح 14، الطبرسي، إعلام الورى، ص 400.
(3) غيبة الطوسي، ص 275، الشيخ الصدوق، كمال الدين، ج 1، ص 286.
(4) السيد ابن طاووس، مصباح الزائر، ص 169، الشيخ إبراهيم الكفعمي، البلد الأمين، ص 82، الشيخ الكفعمي، المصباح، ص 550.

4 - الصبر على المحن والبلاء:

حيث إنّ عصر الغيبة الكبرى يتميّز بتعاظم الجور والظلم والفساد بشكل ملحوظ. لذلك جاء الكثير من الأحاديث التي تؤكّد على مبدأ الصبر وتحثّ عليه وخصوصاً في زمن الغيبة وتتحدّث عن عظم أجر الصابرين كما في الأحاديث التالية: عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنّ من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم**»[1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**وانتظار الفرج بالصبر**»[2]. وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**ما أحسن الصبر وانتظار الفرج، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فعليكم بالصبر فإنّما يجيء الفرج على اليأس**»[3]. ولذلك حينما سمع الإمام الصادق عليه السلام بعض أصحابه يتذاكرون جماعة منهم وقد ماتوا ولم يدركوا زمان القائم وهم يتحسّرون على ذلك قال لهم: «**من مات منكم وهو منتظر لهذا الأمر كان كمن هو مع القائم في فسطاطه، ثم قال: لا بل كان كالضارب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسيف. وفي رواية أخرى كمن استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**»[4].

5 - الدعاء للإمام المهدي عجل الله فرجه والدعاء بتعجيل الفرج:

الدعاء له عجل الله فرجه بتعجيل فرجه، فقد ورد من الناحية المقدّسة على يد محمّد بن عثمان في آخر توقيعاته عليه السلام: «**وأكثروا الدعاء بتعجيل الفرج، فإنّ ذلك**

(1) صحيح الترمذي، ج 2، ص 437، المتقي الهندي، كنز العمال، ج 11، ص 118، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 7، ص 282.

(2) الكلبايكاني، الشيخ لطف الله ، منتخب الأثر، ص 498، الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 19، ص 75.

(3) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج 2، ص 20، الشيخ الصدوق، كمال الدين، ج2، ص 645.

(4) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة ج 2، ص 338، ح 11، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن، ص 174، غيبة النعماني، ص 200، ح 15.

فرجكم»[1]. ومن ذلك الدعاء المعروف «**اللهم كن لوليك الحجة ابن الحسن...**»[2]، وهنـاك أدعية كثيرة للإمام تراجع في مصادرها... فنحن مأمورون بالدعاء للإمام كمـا جـاء ذلك في كثير من الروايات عن أهـل البيت عليهم السلام ولعل ذلك من أجل بقاء الصلة والرابطة مع الإمام ولعل لذلك أيضاً آثاراً أخرى نحن لا نعلمها. فعن يونس بن عبـد الرحمن قال: إن الرضـا عليه السلام كان يأمر بالدعاء لصاحب الأمر بهذا الدعاء: «**اللهم ادفع عن وليك وخليفتك وحجتك على خلقك ولسانك المعبّر عنك بإذنك الناطـق بحكمتـك وعينـك الناظـرة في بريّتـك وشـاهدك على عبـادك الججاج المجاهد العائذ بك العابد عندك،... الخ**»[3].

يقـول السيد ابن طاووس الحسني (رض) بهـذا الخصوص: «**فإيّاك ثم إيّاك أن تقـدّم نفسـك أو أحـداً من الخلائق في الـولاء والدعاء له بأبلغ الإمكان وأحضـر قلبك ولسانك في الدعاء لذلك المولى العظيم الشأن، وإياك أن تعتقد أنني قلت هـذا لأنه محتاج إلى دعائك هيهـات هيهات..!... فإذا دعوت لهذا المولى الخاص عند مالك الأحياء والأموات يوشـك أن يفتح أبواب الإجابة لأجله فتدخل أنت في الدعاء لنفسـك ولمن تدعو له في زمرة فضـله وتتسّـع رحمة الله جل جلاله لك وكرمه وعنايته بك لتعلّقك في الدعاء بحبله**»[4].

6 - إظهار محبّته عليه السلام :

وتحبيبـه إلى الناس، وإظهـار الشوق إلى لقائه عليه السلام ورؤيتـه، والبكاء والإبكاء والتباكي والحزن على فراقه، والتصدّق عنه عليه السلام بقصد سلامته.

---

(1) كمـال الديـن وتمام النعمة، صـ 485، الغيبة للشيخ الطوسي، ص 293، الشيـخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 2، ص 284.

(2) السيد ابن طاووس، الإقبال، ص 85، مصباح الكفعمي، ص 146.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص 333، الشيخ الطوسي، مصباح المتهجّد، ص 409.

(4) السيد ابن طاووس، فلاح السائل، ص 45.

7 - إهداء ثواب الأعمال العبادية المستحبّة له عليه السلام :

كالحـجّ والطواف عنه عليه السلام ، والصـوم والصلاة، وزيارة مشاهـد المعصومين عليهم السلام ، أو بذل المال لنائب ينوب عنه في أداء تلك الأعمال.

8 - الصلاة على الإمام عجل الله فرجه الشريف والسلام عليه :

جاء في دعاء العهد:

«اَللّهُمَّ بَلِّغْ مَوْلانَا الإمام الْهادِيَ الْمَهْدِيَّ الْقائِمَ بأمرك صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ وعَلى آبائِـهِ الطّاهِريـنَ عَنْ جَميـعِ الْمُؤْمِنيـنَ وَالْمُؤْمِناتِ في مَشـارِقِ الأرضِ وَمَغارِبِها سَـهْلِها وَجَبَلِهـا وَبَرِّهـا وَبَحْرِهـا، وَعَنّـي وَعَـنْ والِدَيَّ مِنَ الصَّـلَواتِ زِنَـةَ عَرْشِ اللهِ وَمِدادَ كَلِماتِهِ، وَما أحصاه عِلْمُهُ وأحاط بِهِ كِتابُهُ...»

12

أفضل عبادة أمتي
انتظار الفرج

مفاهيم محورية:

- مفهوم الانتظار.
- الانتظار العبادة.
- الارتباط الروحي بالإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.
- الدعاء للإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف.
- زيارته عجل الله فرجه الشريف وإحياء أمره.

نص الموعظة:

روي عـن أمير المؤمنين علـيّ بن أبي طالب عليه السلام: «**انتظروا الفرجَ ولا تيأسـوا من روح الله فإنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ انتظار الفرج**»[1].

تمهيد

كثـرت الروايات الّتي تتحدَّث عن انتظار الفرج وفضلـه، كالرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أفضل جهاد أُمَّتي انتظار الفرج**»[2].

فمـا هو هـذا الانتظار الذي يعتبر من أحبِّ الأعمال وأفضـل العبادات كما عبَّرت بعض الروايات؟ وكيف يكون؟

مفهوم الانتظار

الانتظار في اللُّغة بمعنى الترقُّب[3]، والتربُّص[4]، وهو «**حالة نفسانيَّة ينبعث منها التهيّؤ لما تنتظره، وضدّه اليأس، فكلَّما كان الانتظار أشدّ كان التهيّؤ آكد...**»[5].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج52، ص 123.
(2) (م. ن)، ج 77، ص 143.
(3) ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص 424.
(4) (م.ن)، ج7، ص 39.
(5) الأصفهاني، ميرزا محمَّد تقي ، مكيال المكارم، ج2، ص 136.

وإنَّ معرفة كيفيّة الانتظار أمر مهمّ جدًّا لأنَّنا نتحدَّث عن فترة طويلة استمرّت قروناً حتَّى الآن ومرَّت فيها أجيال وأجيال، ضمن ظروف مختلفة وفرص متفاوتة، ولا يمكن ترك هذه الأجيال بلا تكليف واضح ومحدَّد، فما هو تكليف هذه الأجيال في هذه الفترة؟ وكيف من المفترض أن يكون انتظارها لظهور الإمام الحجّة عجل الله فرجه لتحقّق الفرج على يديه؟

الإنتظار السلبيّ والإيجابيّ

هناك نهجان مختلفان ومتناقضان متصوّران لكيفيّة الانتظار، في زمان الغيبة الكبرى للإمام الحجّة عجل الله فرجه:

أ- **الانتظار السلبيّ**: والمقصود منه أن يبقى الإنسان جالساً بدون أيِّ حراك أو فعاليَّة تذكر، وبدون أن يقوم بأيِّ عمل تغييريّ، ويكتفي بمراقبة علامات الظهور، وما تحقّق منها؛ ليزداد أمله بقرب الظهور، كما لو استشعر تحقّق شيء منها، وهذا يعني أنَّ الوظيفة الأساسيّة للمؤمنين في عصر الغيبة هي أن يعيشوا أمل ظهور الإمام عجل الله فرجه بدون أن يسعوا لتغيير الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ.

ب- **الانتظار الإيجابيّ**: والمقصود منه أن لا يقف الإنسان مكتوف اليدين ساكناً، حتَّى يتحقّق الفرج بظهور الإمام، وإنَّما يقوم بالواجبات الشرعيَّة الملقاة على عاتقه سواء كانت فرديّة أم اجتماعيَّة، أو لها علاقة بالنظام والحكم...

فأيُّهما هو الانتظار الصحيح والمطلوب شرعاً؟

الانتظار العبادة

عند مراجعة الروايات الشريفة، لا شكَّ أنَّنا سنصل إلى نتيجة قطعيَّة تقول: إنَّ المطلوب من الأجيال في عصر الغيبة الكبرى لا يمكن أن يكون مجرَّد السكون والجلوس في البيت، والتخاذل عن الوظائف الشرعيَّة الممكنة، والّتي فيها مصلحة

الأمَّـة، بل هنـاك العديـد مـن الأدوار الأساسيَّة الّتي لا بـدَّ من تنفيذهـا، يمكن أن نختصرها فيما يلي:

1. **طاعة الله وتنفيذ الأحكام الشرعيّة:**

عن الإمام الحجّة عجل الله فرجه...: «**ولو أنَّ أشـياعنا وفَّقهم الله لطاعته على اجتماع من القلـوب فـي الوفاء بالعهـد لَما تأخَّر عنهـم اليُمن بلقائنا، ولتعجَّلت لهم السـعادة بمشاهدتنا على حقِّ المعرفة وصدقها منهم بنا**»... [1].

فاتِّحاد المؤمنين حول قضية الإمام المهديِّ عجل الله فرجه هو سبب مباشر لتعجيل الظهور، وليـس المطلـوب مجرَّد الاتِّحـاد العقائديّ؛ لأنَّ ذلـك حاصل منذ زمن بعيـد، وإنَّما المطلـوب الاتِّحاد على المستوى العمليِّ. وعندما نتحدَّث عن اتِّحاد، فهذا يعني أنَّهم كالجسـد الواحـد الّذي له رأس واحد يديره ويقـوده، هذا الرأس الّـذي عبَّرت عنه مكاتبتـه عجل الله فرجه: «**وأمَّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنَّهم حجَّتي عليكم وأنا حجَّة الله**»[2]، وهو الوليُّ الفقيه في عصر الغيبة.

ويكـون همُّ المؤمنين تطبيق أحكام الله تعالـى والتمسّك بطاعته، كما طلب وأكَّد عليـه الإمـام الحجّة عجل الله فرجه في ما ورد عنـه: «**فاتَّقوا الله جـلّ جلالـه، وظاهرونا على انتياشكم**[3] **من فتنة قد أنافت**[4] **عليكم، يهلك فيها من حمَّ أجله، ويحمى عنها من أدرك أملـه، وهـي أمارة لأزوف**[5] **حركتنا ومباثتكم بأمرنا ونهينا، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾**»[6]،[7].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 53، ص 177.
(2) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 140.
(3) انتياشكم: انتشالكم.
(4) أناف على الشيء: طال وارتفع عليه.
(5) الأزوف: الاقتراب.
(6) سورة الصف، الآية: 8.
(7) الميرزا النوري، خاتمة المستدرك، ج 3، ص 225، من رسالة للشيخ المفيد.

2. **توحيد الأُمَّة وقوّتها:**

فالإمـام الصادق عليه السلام يتحدَّث بشكل واضح أنَّ حفيده المهديّ المنتظر عجل الله فرجه «**ما يخرج إلّا في أولي قوَّة**».[1]

والقـوَّة لهـا جانبان، قوَّة ماديَّـة تأتي من خلال التجهيز والاستعـداد والتدرُّب... وهـذا يفترض أنَّ هنـاك تحرُّكاً قويًّا في هـذا الاتجاه قبيل ظهـور الإمام عجل الله فرجه، وقوَّة فـي القلـب والإرادة، وهذه تنتج من الثبات أمام الابتـلاءات، وهناك رواية تصفهم: «**إنَّ قلـب رجل منهم أشـدّ من زبر الحديد لو مـرُّوا بالجبال الحديد لتدكدكت، لا يكفُّون سيوفهم حتى يرضى الله عزَّ وجلَّ**»[2].

التمهيد للظهور

هنـاك العديـد مـن الروايات تتحـدَّث عـن أشخاص ورايـات تظهر قبيـل ظهور الإمام عجل الله فرجه وتقـوم بتهيئـة الأرض لـه والتمهيد لظهوره، كالرواية عـن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يخـرج ناس من المشـرق فيوطِّئون للمهديِّ**»[3]. بـل إنَّ أمنية كلِّ مؤمن أن يكون في ركـب جنود القائم عجل الله فرجه عند ظهوره. وفي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «**فيا طوبى لمـن أدركـه وكان من أنصـاره**»[4]. والمخلصون يعملون علـى التمهيد لظهوره، وتهيئة الأرض ومواءمة الظروف لتحقيق شرائط الظهور، وتحقيق اليوم الموعود، وفي رواية أنَّـه سئل الإمام محمَّد التقيُّ عليه السلام: «**لِمَ سُـمِّيَ القائـم؟ فقال: «لأنَّه يقوم بعد موت ذكـره وارتـداد أكثر القائلين بإمامته. فقيل له: وَلِمَ سُـمِّيَ المنتظر؟ فقال: لأنَّ له غيبة يكثر أيّامها، ويطول أمدها، فينتظر خروجه المخلصون، وينكره المرتابون،**

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 323.
(2) القندوزي، ينابيع المودة، ج 3، ص 177.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 51، ص 241.
(4) النعماني، الغيبة، ص 240.

ويستهزىء بذكره الجاحدون، ويكذِّب بها الوقَّاتون، ويهلك فيها المستعجلون، وينجو فيها المسلّمون»[1].

فما هي صفات المخلصين للحجَّة في غيبته الممهِّدين له؟ وما هي صفات أصحابه عجل الله فرجه الشريف؟ هذا ما سنلقي الضوء عليه خلال هذا الدرس، إنْ شاء الله تعالى.

1. **الإيمان بالغيب:**

في الرواية سئل الإمام جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [2] فقال: «**المتّقون شيعة عليّ عليه السلام والغيب فهو الحجّة (الغائب) وشاهد ذلك قوله تعالى:** ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾»[3]،[4].

إنَّ وجود الإمام الحجّة عجل الله فرجه الشريف أصبح من الغيب نتيجة غيبته، والإيمان به إيمان بالغيب، والإيمان بالغيب هو من صفات المتَّقين، لذلك كان الإيمان بالإمام الحجّة عجل الله فرجه الشريف متيسّراً على المتَّقين.

2. **حزب الله:**

عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: في حديث طويل عندما سئل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن أوصيائه، فعدَّهم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قال: «**ومن بعده (أي بعد الحسن العسكريّ) ابنه محمَّد، يدعى بالمهديّ والقائم والحجّة، فيغيب ثمَّ يخرج، فإذا خرج يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، طوبى للصابرين في غيبته، طوبى للمقيمين على محبَّته أولئك الذين وصفهم الله في**

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 51، ص 30.
(2) سورة البقرة، الآيتان: 1 – 2.
(3) سورة يونس، الآية: 20.
(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 124.

كتابه وقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [1]، **وقال تعالى:** ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [2]، [3].

3. الصبر على الأذى:

لا شكَّ أنَّ زمن الغيبة زمن ابتلاءات وامتحانات صعبة تحتاج للكثير من الثبات والصبر، وهذا ما أكَّدت عليه الروايات أيضاً، ففي الرواية عن الإمام الحسين عليه السلام: «**أما أنَّ الصابر في غيبته على الأذى والتكذيب بمنزلة المجاهد بالسيف بين يدي رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم» [4].

4. جهوزيّة أصحاب الحجّة:

وأمَّا بعد ظهور الإمام عجل الله فرجه، فسيكون ظهوره بين أصحاب لهم صفاتهم الخاصّة أيضاً، ومن هذه الصفات الاستعداد والجهوزيّة، ففي الرواية عن الإمام محمَّد الباقر عليه السلام والإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [5] أنّهما قالا: «**الأمّة المعدودة هم أصحاب المهديّ** عجل الله فرجه **في آخر الزمان ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً كعدَّة أهل بدر،**

(1) سورة البقرة، الآيتان: 2 – 3.
(2) سورة المجادلة، الآية: 22.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 143.
(4) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص 318.
(5) سورة هود، الآية: 8.

يجتمعون في ساعةٍ واحدةٍ كما يجتمع قزع الخريف»[1].

فمن الملاحظ فـي هذه الرواية كيف يجتمع أصحاب الإمام في ساعةٍ واحدةٍ، ما يشير إلى الجهوزيَّة التامَّة الّتي يتمتَّع بها هؤلاء الأشخاص بحيث لم ينشغلوا بتجهيز المقدِّمات وتهيئة الأمور لتلبية النداء، بل كانوا جاهزين وحاضرين تماماً.

5. **تمنّي الشهادة:**

عن الإمام جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام قال: «**يَدْعُوْنَ بالشـهادة ويتمنَّوْنَ أنْ يُقتلوا في سبيل الله**»[2].

6. **الارتباط بالله تعالى:**

يتميَّـز أصحاب الإمـام الحجّة عجل الله فرجه بارتباطهم بالله سبحانـه وتعالى وعبادتهم له وتهجُّدهـم في اللَّيل، وقد ورد في الحديث: «**رجال لا ينامـون اللَّيل لهم دويٌّ كدوِيِّ النحل، يبيتون قياماً على أطرافهم ويصـبحون على خيولهم، رهبان بالليل ليوث بالنَّهار، وهم من خشية الله مشفقون**»[3].

كيف نعزّز الارتباط الروحي بالإمام عجل الله فرجه؟

إن الارتباط بالإمـام الحجّة المهديّ عجل الله فرجه ليس مجرّد ارتباط بفكرة عقيديّة غيبيّة بـل بإنسان كامل حيٍّ جسـداً وروحاً يعيش بيننا يرانا ونراه يعرفنا ولا نعرفه يسدّدنا ويوجّهنـا إلى حيث مصلحتنـا ومصلحة الأمّة وهو إمام الإنس والجنّ بل إمام الكون وقوامـه، فلـولا وجود الإمام لساخـت الأرض بأهلها، فهو أمان لأهـل الأرض كما أنّ النجـوم أمـان لأهل السماء كما ورد في الأحاديـث المأثورة عنهم عليهم السلام وهذا يعني

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 9، ص 103.
(2) الشيخ عليّ النمازي الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار، ج 6، ص 190.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 308.

أنّ الإمــام ﷺ لو سحب ألطافه ولم يتدخّل في بعض الشؤون، ولم يعمل على رعاية الأُمّــة وتسديدها في حركتها ومواقفها فاللّه وحده يعلم كيف سيصبح حال المجتمع الإسلامــيّ وإلــى أيّ درجة من الانحطاط والضيــاع يمكن أن يصل. لهــذا علينا أن نحافــظ علــى علاقة وصلة وثيقة بإمــام زماننا ﷺ. وهناك الكثير مــن الأمور الّتي تقــوّي أواصــر العلاقة بإمام الزمــان ﷺ ومنها الدعاء، نشير هنــا إلى قسمين من الدعاء:

1 - الدعاء لمعرفته والثبات على ولايته، باعتباره حجّة اللّه تعالى على خلقه.

2 - الدعاء له عليه السلام لحفظه ونصرته.

وفــي المجاليــن أدعية كثيرة نقتصر هنــا على ذكر المختصــر منها محيلين في غيره إلى المصادر المختصّة.

فقــد روي عــن الإمام الصــادق عليه السلام: يا زرارة إن أدركت ذلــك الزمان – زمان الغيبــة – فأدم هــذا الدعاء: «**اللَّهمَّ عرّفني نفسك فإنّك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف رسولك، اللَّهمَّ عرّفني رسولك فإن لم تعرّفني رسولك لم أعرف حجّتك، اللَّهمَّ عرّفني حجّتك فإنّك إن لم تعرّفني حجّتك ضللت عن ديني**»[1].

وعــن عبــد اللّه بن ســنان عن الإمام الصــادق عليه السلام أنّــه قــال: ستصيبكم شبهة فتبقــون بلا عَلَم يُرى وإمام هدى ولا ينجــو إلّا من دعا بدعاء الغريق قلت: كيف دعاء الغريــق؟ قــال: يقول: «**يــا اللّه، يا رحمن يــا رحيم، يا مقلّــب القلوب ثبّــت قلبي على دينك**»[2].

(1) القمّي، الشيخ عباس، منتهى الآمال، ج2، ص 866.

(2) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص 352.

أ- دعاء العهد:

وينبغي التنبيه على أنّ هذا الدعاء المتقدّم غير دعاء العهد المشهور وإن اشترك معه في أكثر ألفاظه. ولا يتسع المجال هنا لإيراد «**دعاء العهد**» فنكتفي بالتأكيد على أهميّته حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**من دعا بهذا الدعاء أربعين صباحاً كان من أنصار القائم عليه السلام وإن مات قبل ظهوره أحياه الله تعالى حتّى يجاهد معه ويكتب له بعدد كلّ كلمة ألف حسنة ويمحى عنه ألف سيئة**»[1].

ب- دعاء الندبة:

وهو مذكور في مختلف كتب الأدعية والمشهور أنه يقرأ كلّ يوم جمعة... وأضاف المحدّث صاحب المستدرك في «**تحيّة الزائر**» استحباب قراءته في الأعياد الأربعة[2].

ج- دعاء ليلة النصف من شعبان:

وهي ليلة عظيمة تضاهي ليلة القدر... وقد ورد أنّ الله جعلها لأهل البيت عليهم السلام في مقابل ليلة القدر للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم [3].

الزيارة

ومن الأمور الّتي تقوّي العلاقة بصاحب العصر عجل الله فرجه أيضاً الزيارة له، وقد ورد الحثّ عليها في الكثير من الموارد.

قال الكفعميّ رحمه الله: «**يُستحبّ زيارة المهدي في كلّ مكان وزمان والدعاء**

(1) الأصفهاني، مكيال المكارم، ج 2، ص 234.
(2) النوري، الميرزا حسين، تحية الزائر، ص 226.
(3) الكفعمي، مصباح المتهجّد، ص 762.

بتعجيل فرجه صلوات الله عليه... »[1].

وزياراته عليه السلام أيضاً كثيرة نكتفي هنا بذكر بعضها مع الإشارة إلى بعضها الآخر:

زيارة بعد صلاة الفجر: أوردها السيّد الجليل ابن طاووس رضي الله عنه[2].

يوم الجمعة: أورد السيّد الجليل ابن طاووس عليه الرحمة هذه الزيارة للإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف في يوم الجمعة[3].

زيارة سلام الله الكامل: قال المحقّق السيّد عليّ خان رضوان الله عليه: استغاثة إلى صاحب الزمان من حيث تكون تصلّي ركعتين بالحمد وسورة وقم مستقبل القبلة تحت السماء وقل: سلام الله الكامل التامّ الشامل الخ[4].

زيارة سلام على آل يس: وهي زيارة معروفة جدّاً كسابقتها ويُستفاد من كلام بعض أهل العبادة أنّ هاتين الزيارتين طريق إلى التشرّف بلقائه عليه السلام.

وهذه الزيارة موجودة في مفاتيح الجنان وقد ورد في روايتها قول الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف:

«إذا أردتم التوجّه بنا إلى الله تعالى وإلينا فقولوا: سلام على آل يس الخ»[5].

وهناك العديد من الزيارات في أماكن مشرفة وأوقات مباركة فلتطلب من مظانها.

إحياء أمره بين الناس

لا بدّ من العمل لتعريف الناس بالإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف وإحياء أمره بينهم وذلك عن طريق:

(1) الكفعمي، البلد الأمين، ص 309.
(2) حيدر الكاظمي، عمدة الزائر، ص359 –360.
(3) المحدث النوري، النجم الثاقب، ص 467.
(4) حيدر الكاظمي، عمدة الزائر، ص 131.
(5) (م. ن)، عمدة الزائر، ص 345.

زيـارة المجاهديـن فـي مواقعهـم الجهاديّـة وغيرهـا وعيـادة الجرحـى منهم باعتبارهـم جنوده عليه السلام وقد ورد عنهـم عليهم السلام: «**من لم يقدر علـى زيارتنا فليزر صالحي موالينا يُكتب له ثواب زيارتنا**».

- إقامة مجالس الدعاء والزيارة له عليه السلام خصوصاً دعاء الندبة.
- إقامة الندوات والاحتفالات أو المشاركة بالحضور فيها.
- نظم الشعر.
- تأليف الكتب وكتابة المقالات.
- الاهتمام بإحياء ليلة النصف من شعبان.
- تعميم مظاهر الزينة والابتهاج في يوم مولده المبارك في 15 من شعبان.
- الاهتمام بشؤون الفقراء والمحتاجين دائماً باسمه عليه السلام.
- إلى غير ذلك من الأساليب الّتي تشترك جميعها في تحقيق هذا الهدف.

1003049

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org